سلسلة كتاب شرقيات للجميع



أيام من حياتي

هرمان هسه

ترجمة :

أحمد عمر شاهين

(١)

دار شرقيات للنشر والتوزيع

أيام من حياتي

هذه ترجمة كاملة لكتاب :
Autobiographical writings
Hermann Hesse
Picador-PanBooks- 1977

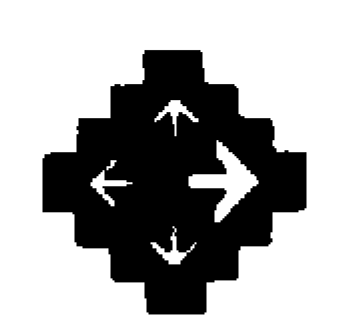
أيام من حياتي
هرمان هسه
ترجمة: أحمد عمر شاهين
الطبعة الأولى، ١٩٩٤

غلاف واخراج: ذات حسين ابو زيد
دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، هدى شعراوي
باب اللوق، القاهرة.
سجل تجاري: ٢٦٩١٩٨
ت: ٣٩٠٢٩١٣

أيام من حياتي

هرمان هسه

ترجمة :
أحمد عمر شاهين



طفولة ساحر

طفولة ساحر

مرة ثانية، وثانية أيتها الملحمة القديمة المحبوبة
أنزل نبعك
أسمع أغنيتك الذهبية
كيف تضحكين، وتحلمين وتبكين برقة
وتأتي كلمة السحر المهموسة
من أعماقك، كتحذير
وأبدو كنائم أو مخدر
وانتِ تدعونني أن أقدم أو أحجم

❖ ❖ ❖

لم يكن مصدر تعليمي في طفولتي من الوالدين والمدرسين فقط، ولكن أيضاً من قوى عليا أكثر سحراً وغموضاً. من بين هذه القوى كان الإله پان- الذي يقف في الدولاب الزجاجي في مكتب جدي متخفياً في شكل وثن هندي صغير. هذه القدسية وأشياء أخرى سلبت لبي في سنوات طفولتي، وقبل أن أقرأ وأكتب بفترة

طويلة امتلأت نفسي بالصور الشرقية العتيقة ثم بعد ذلك بالأفكار التي تدور حولها، وحين تقابلني ملحمة هندية أوصينية، يبدو الأمر وكأن شملي قد التم على من يعرفه، وأكون كمن يعود إلي الوطن، مع أني اوربي وقمت طوال حياتي بممارسة الخصال الغربية من الاندفاع والتهور بحماسة مع فضول شره لا يخمد. ولحسن الحظ، مثل كل الأطفال، تعلمت الأشياء الضرورية جداً، والأكثر قيمة قبل أن تبدأ سنوات الدراسة، تعلمت من أشجار التفاح، من المطر والشمس، من النهر والغابات، من النمل والخنافس، تعلمت من الإله پان، من الوثن الراقص في دولاب كنوز جدي. أعرف طريقي في العالم، ارتبط بلا خوف مع الحيوانات والنجوم، في البيت، في البساتين، مع الأسماك في البحار، وكنت استطيع إنشاء العديد من الأغاني، والقيام ببعض الألعاب السحرية، مهارة نسيتها بعد ذلك لسوء الحظ، وكان علي أن أعاود تعلمها في سن متقدم، باختصار كنت أملك كل حكمة الطفولة الأسطورية .

وإلي ذلك كله، أضيف الآن، الدراسة الرسمية، وكانت مسلية، فالمدرسة لا تشغل نفسها بمثل هذه الإنجازات المهمة الضرورية للحياة، بل بأشياء ترفيهية جذابة وسخيفة استمتعت بها غالباً، مع قليل من المعلومات التي بقي بعضها معي طوال حياتي فما زلت أعرف بعض الأمثال اللاتينية الطريفة، وبعض الأشعار والأقوال المأثورة، وعدد سكان بضع مدن في أرجاء المعمورة، ليس كما هي عليه اليوم، بل كما كانت عليه في أواخر القرن الماضي.

لم أفكر جدياً فيما سأكونه يوماً ما، أو في المهنة التي سأختارها حتى سن الثالثة عشرة. ومثل كل الأطفال أحببت كثيراً

من الأعمال وحسدت كثيراً من البشر على مهنهم، الصياد، المراكبي، المحصل، الكهربائي، مكتشف القطب الجنوبي،..إلخ لكن مهنتي المفضلة ورغبتي كانت أن أصبح ساحراً. وكانت هذه الرغبة الأعمق والاكثر رسوخاً في نفسي وقد أنبثقت من عدم أقتناع يقيني بما يسمية الناس بالواقع، الذي بدا لي أحياناً، وببساطة، أنه مؤامرة سخيفة من الكبار، ومنذ وقت مبكر في حياتي، شعرت برفض واضح لهذا الواقع، أحياناً أشعر بالفزع منه، وأحياناً بالازدراء له، وأنتابتني رغبة ملحة لتغيير هذا الواقع، وتحويلة والارتقاء به بالسحر.

هذه الرغبة في السحر، اتجهت في طفولتي إلى أهداف خارجية : رغبت أن أجعل أشجار التفاح تثمر في الشتاء، أو أن أملأ محفظتي بالذهب والفضة، أو أن أكسح أعدائي وأذلهم بسحري، وينصّبني الناس بسبب ذلك بطلاً أو ملكاً، ورغبت أن أجد كنوزاً مدفونة، أو أن أحيي الموتى، أو أجعل نفسي غير مرئية، وهذه الرغبة، الاختفاء هي التي كانت أكثر أهمية بالنسبة لي، وتمنيت لو تحققت لي بشكل ما، وطوال حياتي صحبتني هذه الرغبات السحرية بأشكال عدة. ولو أنني لم أدركها وقتها، ولكن بعد أن كبرت وأصبحت كاتباً، لاحظت أني، بأستمرار، أحاول أن أتخفى وراء شخصياتي، أختفي لاعباً متنكراً خلف الأسماء، محاولات قوبلت باستغراب وعدم فهم من زملائي الكتاب بل واتخذت نقيضة ضدي. حين أنظر إلى الخلف، يبدو لي أني طوال حياتي قد وقعت تحت سيطرة هذه الرغبة من القوى السحرية، أما كيف تغيرت أهداف هذه الرغبات السحرية مع الزمن، وكيف تحولت بالتدريج من العالم الخارجي إلى التركيز على النفس وكيف تقت

إلى آن أبدل الاختفاء الفعلي بقناع سحري، إلى أختفاء الرجل العاقل الذي يشاهد الجميع ولا يشاهده أحد، فهذا قد يكون المضمون الحقيقي لقصة حياتي.

كنت صبياً سعيداً ونشيطاً، ألعب في الدنيا الجميلة متعددة الألوان، في البيت وفي كل مكان. ليس مع الحيوانات والنباتات فقط، بل وفي الغابة البدائية لأوهامي وأحلامي. كنت سعيداً بقواي وامكانياتي، وأكثر سعادة برغباتي الخارقة. مارست كثيراً من الألعاب السحرية في ذلك الوقت وأجدتها بدرجة لم أستطعها حين كبرت، كان من السهل أن أكسب حب الآخرين والتأثير عليهم، ولم يكن صعباً عليّ أن أقوم بدور قائد المجموعة، أو أحوز الإعجاب، أو أن أقوم بدور الشخص الغامض، ولسنوات أبقيت على اقتناع اصدقائي واحترامهم لقواي السحرية الواقعية الموضوعية، وبقدرتي على السيطرة على الجن والشياطين، وبحقي في التيجان والكنوز المدفونة، ولفترة طويلة عشت في الجنة مع أن والدي قد نبهني منذ وقت مبكر إلى وجود الثعابين .

واستمر حلم طفولتي طويلاً، بأن العالم ملكي، وأن الحاضر هو الموجود فقط، وأن العالم يعمل ليكون لعبة جميلة لي، وإذا حدث في مناسبة ما أن أعتراني القلق أو بدا العالم السعيد حولي مبهماً وغامضاً، فمن السهل عليّ آنذاك أن أجد طريقي في العالم الأكثر حرية، والاكثر طوعاً وليونة، عالم الخيال، وحين أعود منه، أجد العالم الخارجي مرة ثانية عالماً سحرياً ويستحق حبي، لمدة طويلة عشت في الجنة .

كانت هناك سقيفة في حديقة بيتنا الصغيرة، كنت أربي فيها الأرانب وغراباً أليفاً . قضيت هناك ساعات لا حصر لها، طويلة

كالعصور الجيولوجية، في دفء ونعمة الإحساس بالملكية الخاصة. رائحة الحياة التي تنبعث من الأرانب، من العشب والحليب، من الدم والتوالد، وعيني الغراب الحادتين السوداوين تشعان بنور حياة أبدية، قضيت في هذا المكان فترات طويلة من الأمسيات، أجلس قرب شمعة سيالة مع الحيوانات الدافئة النائمة، وحيداً أو بصحبة صديق، أخطط لأكتشاف كنوز هائلة، أو أبحث عن جذور نبات تفاح المجانين، أو أرسل حملات منتصرة في كل أرجاء العالم، حملات في حاجة دائمة للنجدة، أؤدب فيها اللصوص، وأطلق سراح الأسرى المساكين، وأهز قلاع القراصنة، وأصلب الخونة، وأعفو عن العبيد الفارين، وأكسب حب بنات الملوك، وأفهم لغة الحيوان.

وكان هناك كتاب ضخم في مكتبة جدي الكبيرة، كنت غالباً ما أقلب صفحاته، وأقرأ قليلاً هنا وهناك، كان يحتوي على صور عتيقة رائعة، أحياناً أجدها بمجرد فتح الكتاب وتقليب الصفحات، صور براقة تشدك إليها، وأحياناً أبحث في الكتاب فترة طويلة ولا أعثر عليها إطلاقاً، ضاعت، سُحرت وكأنها لم تكن موجودة قط. وكانت هناك قصة في هذا الكتاب جميلة بدرجة مفرطة ولا تنضب معانيها، كنت اقرؤها وأعيد قراءتها مرات ومرات، وهي أيضاً ليس من السهل أن تعثر عليها أحياناً، تختفي وتظل مختفية كأنها غيّرت مقرها وعنوانها. أحياناً، حين تقرؤها تجد فيها تعاطفاً غريباً وساحراً، وتاره تجدها مستعصية على الفهم، ومحرماً عليك الولوج إلي معانيها، كالباب الذي في غرفة السطح والذي أسمع وراءه أحياناً الأشباح تزمجر أو تثرثر خاصة عند الشفق.

كل شيء مملوء بالواقع ومملوء بالسحر. الاثنان يسيران جنباً إلى جنب بثقة. وكلاهما ملكي الخاص.

ثم هناك أيضاً الوثن الهندي الذي ينتصب في دولاب جدي الزجاجي الخرافي، أحياناً يكون مجرد وثن، شكل غريب ومضحك، مصنوع ومعبود في بلاد غريبة يصعب فهمها، وسكان غرباء يصعب فهمهم، لم يكن دائماً الوثن نفسه، لم يكن له دوماً الوجه نفسه، ولا يرقص الرقصة ذاتها في كل الاوقات، أحياناً يبدو كشيء سحري مملوء بالمعنى، نحس وشرير، شره للقرابين، سيء النية، حاقد، قاسٍ، ساخر، غير جدير بالثقة، يبدو أنه يغريني بالضحك منه لينتقم مني بعد ذلك. يستطيع أن يغيّر تعابير وجهه، برغم أنه مصنوع من معدن أصفر، أحياناً يغطي تعابير وجهه بالخواء، وفي مرات أخرى يبدو كرمز، ليس بالقبيح ولا بالجميل، لا خيّراً ولا شريراً، لا يُخيف ولا يُضحك، ولكنه تمثال قديم غامض كحرف من لغة قديمة، أو نبتة على صخر، أو خطوط على حصاة، ويتوارى وراء شكله ووجهه وصورته ..اللانهائي. في ذلك الوقت، وأنا صبي، لم أكن أعرف اسمه، فأطلقت علية أسماء عدة، ليست أقل مما عرفت في أيام لاحقة، أسميته شيفا، وفشنو، والله والحياة و براهمان، وأتمان، وتاو، والأم الخالدة. كان الأب والأم . كان الرجل والمرأة، الشمس والقمر.

وحول التمثال في الدولاب الزجاجيِ وفي دواليب جدّي الزجاجية الاخرى، أشياء ومخلوقات أخرى كثيرة واقفة ومعلقة ومستلقية، خيطان من خرز خشبي كالمسابح، لفات من أوراق النخيل عليها كتابة هندية قديمة، سلاحف منحوتة من حجر أخضر أملس، صورصغيرة للمسيح من الخشب أو الزجاج أو الكوارتز أو الصلصال، مفارش مطرزة من الحرير و الكتان، أوعية وفناجين من نحاس أصفر، وكل هذا جاء من الهند وسيلان، من جزيرة الجنة

بأشجار السرخس التي تغطي أرضها، والنخيل الذي يزين شواطئها، والنساء الجميلات بعيون الظباء، من سيام ومن بورما، وكل شيء له رائحة البحر والتوابل و الأماكن البعيدة، رائحة القرفة وخشب الصندل، وكلها تداولتها أو مرت على أيدٍ بنية أو صفراء، بللتها الأمطار الإستوائية ومياه نهر الجانج، جففتها شمس حارة وظللتها غابات بدائية. كل هذه الاشياء كانت ملك جدي، الإنسان العجوز الجليل القوي ذي اللحية البيضاء والعلم الواسع، أقوى من الأب والأم، صاحب التماثيل الهندوسية والدمى ، وكل الأشياء المحفورة والمطلية المليئة بالسحر، والأوعية المصنوعة من قشر جوز الهند، والصناديق المصنوعة من خشب الصندل، والصالة والمكتبة، وفوق ذلك كان ساحراً وحكيماً ومعلماً، يفهم لغات البشر، أكثر من ثلاثين لغة، وربما لغة الإله ولغة النجوم، يستطيع أن يتكلم ويكتب السنسكريتية والبالية، لغة الأسفار البوذية القديمة، يستطيع أن يغني أغاني الكاناريين والبنغاليين والهندوس و أهل سيلان، يعرف الطقوس الدينية للإسلام والبوذية، هو المسيحي الذي يؤمن بالتثليث، عاش سنين وحقباً طويلة في بلاد شرقية حارة، سافر في قوارب وعربات تجرها الثيران، وعلى ظهور الخيل والحمير، لا أحد يعرف مثله أن مدينتنا وبلدنا ليست إلا جزءاً صغيراً من الأرض، وأن هنا ألف مليون من البشر لهم معتقدات غير معتقداتنا، وعادات غير عاداتنا، ولغات غير لغتنا، جلودهم ملونة، آلهتهم آلهة أخرى، فضائلهم ورزائلهم فضائل ورزائل مختلفة. أحببته واحترمته وخفته. كنت أتوقع منه كل شيء، وإليه أرجع كل شيء، ومنه ومن الإله پان المتخفي في شكل وثن تعلمت بغير انقطاع.

هذا الرجل، والد أمي،كان مختفياً في غابة من الأسرار والغموض الغزير، من عينية يشع الرثاء لهذا العالم كما تشع الحكمة المبهجة، يعرفه أناس من بلاد مختلفة، يزورونه ويبجلونه، يتحدثون إليه بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والهندية والملاوية، وبعد حوارات طويلة يغادرون، لا يتركون مفتاحاً نتعرف منه على هوياتهم، ربما أصدقاء له أو أعداء، خدم أو عملاء، من هذا الرجل الذي لا مثيل له، جاء السحر والسر المحيطان بأمي، سر عمره قديم، فهي كانت معه في الهند فترة طويلة، وتستطيع أن تتكلم وتغني بالملاوية والكنارية، وهي تتبادل معه العبارات والأقوال المأثورة بلسان غريب سحري، وأحياناً يكون لها - مثله تماماً - تلك الابتسامة الغريبة، المغلفة بالحكمة .

كان أبي مختلفاً عنهما، فهو لا ينتمي إلى عالم جدي وأوثانه، ولا حتى إلى عالم المدينة العملي، كان ينتمى إلى جانب واحد ووحيد، البحث، فهو باحث يعاني ويقاسي دون زيف، ويمتلئ حماساً في خدمة الحقيقة، طيب ومثقف ولكنه بعيد عن تلك الابتسامة النبيلة الواهنة، ليس حوله أي أسرار أو غموض، لم تتخل عنه طيبته أو ذكاؤه، ولم يختف أبداً في مثل تلك السحابة السحرية التي تحيط بجدي، ولم يذب وجهه في تلك التعابير الطفولية والقدسية المختلطتين معاً، والتي تبدو حزينة أحياناً، أو تحمل تعبير السخرية الرقيقة، أو تشكل قناعاً قدسياً من الصمت والغوص في النفس. لم يتحدث أبي باللغة الهندوسية، ولكنه يتكلم الإنجليزية والألمانية الواضحة النقية الممزوجة قليلاً بلكنة بحر البلطيق، وبهذه اللغة الالمانية شدني إليه واستمالني نحوه ووجهني، وفي أوقات معينة سعيت إلى محاكاته، مملوءاً بالاعجاب

والحماسة الكبيرة برغم إدراكي أن جذوري تضرب أعمق في تربة أمي بعيونها السوداء الغامضة. كانت أمي مشبعة بالموسيقى، ولم يكن أبي كذلك، بل لم يكن يستطيع أن يغني .

كان لي شقيقتان تكبراني وشقيقان أكبر مني أحسدهما وأعجب بهما، تحيطنا المدينة الصغيرة، عتيقة وحدباء، وحولها الجبال المغطاة بالغابات، قاسية ومظلمة قليلاً، يجري في وسطها نهر جميل، منحن ومتردد في سيره، وكل هذا أحببته وسميته الوطن. وكنت ملماً جيداً بالأشياء النامية في الغابات والتربة والنهر، الحجارة والكهوف، والطيور، والسناجب، الثعالب والأسماك، وكنت أعتبر كل ذلك ملكي، بيتي، بالإضافة إلي الدولاب الزجاجي وما يحتويه، والمكتبة، والسخرية اللطيفة في وجه جدي غزير المعرفة، ونظرة أمي الدافئة الغامضة، والسلاحف والأوثان، والأغاني الهندوسية والأقوال المأثورة، وكل تلك الأشياء التي تناجيني من عالم أوسع، ومن وطنٍ أكبر ومن أنساب قديمة وسياق أعرض وأوسع، وببغاء حزين، يقف في قفصه العالي عجوزاً وحكيماً، بوجه تلميذ جاد ومنقار حاد، يغني ويرطن، وهو أيضاً جاء من مكان بعيد، من المجهول، يعزف لغة الغابات ورائحة خط الاستواء، عوالم كثيرة من أرجاء الأرض الأربعة، كأذرع ممتدة، ترسل أشعة تتقابل وتتقاطع في بيتنا. والبيت كبير وعتيق، بغرف كثيرة فارغة تقريباً، بأبنية وممرات طويلة تفوح منها رائحة الحجارة والبرودة، ويرن فيها الصوت والصدى، غرف عديدة على السطح مملوءة بالغلة والكراكيب وتيارات الهواء والفراغ المظلم، أشعة ضوء من عوالم مختلفة تتقاطع في هذا البيت. هنا أناس يصلون ويقرأون الإنجيل، يدرسون ويتحدثون على فقه اللغة

الهندوسية، وهُنا تُعزف موسيقى راقية، هنا حكمة بوذا ولاو تسي، وضيوف يأتون من أقطار كثيرة، تشم رائحة أنفاس الغربا ء، وترى الملابس البسيطة السمحة، سراويل من الجلد واللحا ء المجدول، وتسمع أصوات ألسنة غريبة، الفقير يُطعم هنا، والاحتفالات تقام في الإجازات، العلم والأسطورة يتعايشان جنباً إلى جنب في هذا البيت .

وكانت الجدة أيضاً، مهابة، لا تعرف الكثير، فهي لا تتكلم الألمانية، وتقرأ في إنجيل باللغة الفرنسية. كانت حياة هذا البيت معقدة، ولم يكن في وسع أي شخص أن يفهمها، لعبة الضوء هنا متعددة الألوان، وأصوات الحياة غنية ومتنوعة، كانت جميلة وتبهجني، لكن الأكثر جمالاً منها كان عالم رغباتي وأحلام يقظتي الأكثر خصوبة، لم يكن الواقع كافياً. كانت هناك حاجة إلى السحر. وكان السحر كأحد سكان بلدتنا بالنسبة لي ولبيتنا. فبالإضافة إلى خزائن جدي الزجاجية، كانت هناك خزانات أمي المليئة بالأنسجة وقطع القماش والأخمرة الآسيوية، كان هناك سحر في غموض رائحة الغرف القديمة العديدة، والسلالم الملتوية، ونظرة التماثيل الخاوية، وكان هناك الكثير داخلي مما يتجاوب مع هذه الاشيا ء.

هناك علاقات وحاجات توجد في داخلي ولأجلي فقط، ولم يكن هناك شيء أكثر غموضاً وصعوبة في التعبير عنه، وأكثر بعداً عن الطبيعي والاعتيادي من هذه الأشيا ء، ومع ذلك لا يوجد أكثر منها واقعية. كان كل ذلك واقعياً برغم الظهور والاختفا ء النزوي لصور وحكايات كتاب جدي الضخم، والتحول في شكل الاشيا ء الذي أراه يحدث بين ساعة وساعة ، فكم يبدو وجه ساعة

الحائط مختلفاً أو صورة المسيح في غرفة المعيشة، حين تكون أنفاس جدي حاضرة، غيرها حين تكون أنفاس أبي هي المتواجدة، وكم يتغير ذلك تماماً، حين لا يكون هناك نفس لأحد سواي. كنت أعطي للأشياء تواقيعها، حين تلعب روحي بها، وأضفي عليها أسماء ومعان جديدة، ففي مثل هذه الحالات، يكون كرسياً عادياً، أو ظلاً قرب الفرن، أو عنوانا رئيسياً لجريدة، جميلاً ومبهجاً أو قبيحاً وشريراً، له معني عميق أو بلا معنى على الاطلاق يبعث في النفس الحنين أو يثير الخوف، مضحكاً أو محزناً، كم كانت الأشياء الثابتة المستقرة قليلة، كان كل شيء ينبض بالحياة، يتحول دائماً ويتوق إلى التغيير وترقب الانحلال وإعادة الميلاد.

ولكن من بين كل هذه الأشباح السحرية، فإن أكثرها أهمية وجاذبية بالنسبة لي كان «الرجل الصغير». لا أذكر متى رأيته أول مرة، وأعتقد أنه كان موجوداً دائماً، وأنه جاء إلى العالم معي. كان رجلاً صغيراً، نحيفاً رمادي اللون يشبه الظل، لا أعرف إذا كان شيطاناً أو ملاكاً، جنياً أو روحاً هائمة، أحياناً يسير أمامي في أحلامي كما في يقظتي. وكان عليّ أن أطيعه أكثر من طاعتي لوالدي أو والدتي، أكثر من العقل بل وأكثر من الخوف. وحين يكون مرئياً فلا وجود لشيء بالنسبة لي إلا له، وعليّ أن أقلد ما يفعله. يظهر دوماً في أوقات الخطر، إذا قابلني كلب متوحش أو شحاذ مزعج، وأصبح موقفي حرجاً، وجاءت أكثر اللحظات خطورة، أجده أمامي، يبين لي طريق النجاة، قد يريني فتحة في سياج الحديقة أنفذ منها في زنقة الوقت، أو قد يشير عليّ بما يجب أن أفعله، أرقي على الارض، أو أعود إلى الخلف أو أجري أو أصمت أو أصرخ. قد يأخذ من يدي شيئاً كنت على وشك

أن آكله، أو يقودني إلى أماكن أعثر فيها على ممتلكات مفقودةهناك أوقات أراه فيها كل يوم وأوقات يغيب فيها عني، فتكون أوقاتاً عصيبة، يبدو فيها كل شيء فاتراً ومشوشاً، لا شيء يحدث ولا شيء يتقدم. ذات مرة، كان الرجل الصغير يجرى أمامي وأنا وراءه في ساحة السوق، واتجه إلى النافورة الكبيرة بحوضها الذي يرتفع أكثر من قامة رجل، وتصب فيه أربع عيون من الماء، تسلق الحوض وأنا وراءه، وحين قفز إلى الماء بنشاط قفزت خلفه، لم يكن لي خيار، وأصبحت قاب قوسين من الغرق، وأنقذتني إحدى جاراتنا، شابة جميلة لم أكن أعرفها آنذاك، والتي سوف أرتبط بها بصداقة قائمة على المداعبة .

وذات مرة كان أبي يوبخني بعد ما قمت بعمل غير لائق، حاولت أن أدافع عن نفسي ولم أستطع، وعانيت من حقيقة أن الصغير يجد صعوبة كبيرة في أن يجعل نفسه مفهوماً للكبار، ذرفت بعض الدموع ونلت عقاباً غير قاس، وفي النهاية أعطاني أبي -حتى لا أنسى المناسبة - مفكرة جيب صغيرة وجميلة. كنت خجلاً وغير مقتنع بالقضية كلها. فخرجت وسرت علي القنطرة التي تقطع النهر، وحين برز الرجل الصغير أمامي، قطع الطريق عليَّ وأمرني بالإشارة أن ألقي هدية أبي في النهر. فعلت ذلك في الحال، فالشك والتردد لا يوجدان حين يكون الرجل الصغير موجوداً، أما حين يهجرني ويختفي، يعتريني التردد في كل تصرفاتي. أذكر يوماً كنت أسير في نزهة مع والدي، وظهر الرجل الصغير لي، مشى على الجانب الأيسر من الشارع فتبعته، وحين أمرني أبي أن أعود إلى الجانب الاخر، رفض الرجل الصغير أن يأتي معي، وأصر على السير في الناحية اليسرى، فعدت للسير

معه، تعب أبي من المسألة وتركني أخيراً أسير حيث أريد. لكنه انزعج، وسألني في البيت لماذا كنت مصراً على عدم طاعته، في أوقات كهذه تنتابني حيرة شديدة بل كرب عظيم، لأن هناك استحالة في نطق كلمة واحدة عن الرجل الصغير لأي إنسان، فلا شيء أسوأ او أحقر من الخطيئة المميتة وهي خيانة الرجل الصغير، سواء بالإشارة إليه أو بتلفظ كلمة عنه، فأنا لا أستطيع حتى أن أفكر فيه، أو القيام باستدعائه، أو التمني بأن يكون بجانبي، إذا كان موجوداً فكأنه لم يوجد قط.

لكن أكثر الأشياء استحالة هو أن يأتي ولا أتبعه، أذهب وراءه أينما يذهب، في الماء أو النار، ولم يكن ذلك بنصائح أو أوامر منه، لكن من المستحيل ألا أقلد ما يفعله، كاستحالة ألايتبع ظلي في الشمس ما أفعله، وقد أكون ظلاً أو صورة في مرآة الرجل الصغير الذي بلا اسم، أو قد يكون هو ظلي وصورتي في المرآة. وحين أقلده فكأني أمثل معه أو كأننا معاً نقوم بالشيء نفسه في الوقت نفسه. وللأسف لم يكن موجوداً دائماً، وحين يغيب عني، تفقد أفعالي كل طبيعتها وضرورتها، ويكون كل شيء على عكس ما أهوى، وفي كل خطوة يصيبني التردد، أقوم بالعمل أو لا أقوم، وكل الخطوات السعيدة المحظوظة التي قمت بها في ذلك الوقت حدثت دون تفكير أو تأمل، وربما تكون مملكة الحرية هي مملكة الوهم في الوقت ذاته.

ويا لها من صداقة تلك التي قامت بيني وبين الفتاة المرحة التي بالجوار، منقذتي من حوض نافورة المياه. كانت صغيرة، وجميلة، ومملوءة بالحيوية، وحلوة المعشر وصامتة صمتاً يوحي بالعبقرية. تركتني أقص عليها قصص السحرة واللصوص،

تصدقني أحياناً بشكل مبالغ فيه، وتارة بدرجة معقولة، وكانت تعتبرنى أحد الرجال العقلاء من الشرق، وكنت على استعداد أحياناً أن أصدقها. أعجبت بي بشدة، وكنت إذا أخبرتها بطرفة تضحك بصوت مرتفع وبإفراط حتى قبل أن تفهم النكتة، أنبتها على ذلك مرة قائلاً: اسمعى يا «أنّا» كيف يمكنك أن تضحكي على طرفة لم تفهميها؟ ذلك سخف بالإضافة إلى أنه إهانة لي، إما أن تفهمي النكتة او لا تضحكين، لا يجب عليك أن تضحكي وتمثلي كما أنك فهمت. استمرت في الضحك وصرخت: أنت أذكى صفير عرفته. أنت عظيم، ستكون أستاذاً أو سفيراً أو طبيباً، أنا أستمتع بصحبتك لأنك أذكى من عرفت. اشرح لي طرفتك بالتفصيل، وتظل تتساءل حتى تفهم أخيراً، وإذا كانت قد ضحكت من قبل من كل قلبها وبإفراط، فإنها الآن، بعد فهمها، تضحك حقيقة بشكل جنوني ومعد بحيث اضطر إلى الضحك أيضاً.

أحياناً كنت أردد أمامها بسرعة جملاً متشابهة الحروف، ثلاث مرات متتالية، مثل «خيط حرير علي حيط خليل» وأطلب منها تكرار ذلك بإصرار، لكنها تبدأ في الضحك، ولا تنطق كلمتين صحيحتين، وبعد كل كلمة تنطقها تقرقع بدفعات من الضحك متجددة. كانت أكثر الاشخاص الذين عرفتهم مرحاً، وفي ذكائي الطفولي اعتبرتها بلهاء، وربما كانت كذلك، لكنها كانت مخلوقاً سعيداً، وأنا أميل أحياناً إلى اعتبار المخلوقات السعيدة أهل الحكمة المجهولين حتى لو بدوا أغبياء، فما الذي يجعل الناس أكثر تعاسة وغباء من الذكاء؟

وبمرور السنوات، توقفت صداقتي مع الانسة «أنّا» .فقد كبرت وأصبحت موضوعاً للإغراء والأحزان ومخاطر الذكاء، حين قابلتها ثانية كان الرجل الصغير هو الذي قادني إليها، كنت في مرحلة الصراع المفرط في مسألة الاختلاف بين الجنسين ومن أين يأتي الأطفال، وكان السؤال حارقاً ومعذباً حتى أني فضلت أن أتوقف عن الحياة إذا لم تحل هذه الالغاز المرعبة، كنت غاضباً وحزيناً، عائداً من المدرسة عبر ميدان السوق، عيناي في الأرض، تعساً وواجماً، حين ظهر لي فجأه الرجل الصغير، كان قد أصبح ضيفاً نادراً ولمدة طويلة لم أره، والآن أراه أمامي صغيراً ورشيقاً يجري على الأرض، رأيته لحظة قبل أن يندفع ويختفي في بيت الآنسة «أنّا»، ولكني كنت تبعته بالفعل داخل البيت وكنت أعرف لماذا أفعل ذلك. وصرخت «أنّا» حين اندفعت إلى غرفتها بلا استئذان، لأنها كانت تخلع ملابسها آنذاك، لكنها لم تطلب مني الخروج، وعرفت تقريباً كل ما كان يعذبني لضرورة أن أعرفه آنذاك وكان من الممكن أن يتحول الموضوع إلى فضيحة كبيرة، لو لم أكن عندئذ صغيراً جداً علي ذلك الأمر.

هذه الفتاه العبيطة المرحة، كانت لا تشبه احداً من البالغين، فبرغم غبائها كانت طبيعية ومتفتحة وواعية، ليست مخادعة ولا مخاتلة، ومعظم الكبار على عكس من ذلك، بالطبع هناك استثناءات، أمي مثلاً، خلاصة الحياة المنعشة و التأثير الساحر، وأبي الذي يجد الاستقامة والذكاء، وجدي الذي غدا وكأنه من عالم غير عالم البشر، الغامض، متعدد الجوانب، الضاحك، دائم العطاء، لكن العدد الأكبر من الكبار- مع أن المرء يخدمهم ويخافهم-عبارة عن أصنام من الصلصال- وكم يبدون باعثين علي السخرية في

تمثيلهم البشع حين يتحدثون عن الصغار! كم هي زائفة أصواتهم! وكم هي مثيرة للسخرية ابتسامتهم! وكيفية تمثيلهم الجدية الزائدة بمواعيدهم وأشغالهم! وكم هي مبالغ فيها أشكالهم حين تراهم يعبرون الشارع بملابسهم وحقائبهم والكتب مثبتة تحت آباطهم، كم هم تواقون بأن يعرفهم الآخرون، يحيونهم ويحترمونهم.

أحياناً، يأتي ضيوف إلي المنزل يوم الأحد، الرجال بقبعاتهم العالية، وبأيديهم الشريرة المغطاة بقفازات مضحكة متكلفة، منتفخون بالعظمة، يهتمون بمستوى التبجيل المقدم لهم، محامون وقضاة، ووزراء، ومدرسون ومدراء ومفتشون، زوجاتهم معهم، فزعات كأنهن وبّخن قبل مجيئهن، يجلسون جميعاً متصلبين على الكراسي، علي المرء أن يحثهم عند كل لفتة ويساعدهم في كل حركة، وهم يخلعون معاطفهم، ويدخلون الغرف، يجلسون، يثرثرون، يسألون ويجيبون، ويغادرون. وكان من السهل أن أنظر بلامبالاة إلى هذا العالم البرجوازي الصغير كما يتطلب الأمر، فوالدي ووالدتي لا ينتميان إلى هذا العالم بل ويجدانه مضحكاً. وحتى هم لايمثلون أو يلبسون القفازات أو يقومون بالزيارات، فإن معظم الكبار في نظري سخفاء، غريبو الأطوار بدرجة كبيرة، فكم يشعرن بأهمية أنفسهم وأعمالهم ونقابتهم ومراكزهم الرسمية! وكم يبدون في نظر أنفسهم عظماء وأجلاء! فإذا حدث أن اعترض طريقهم محصل أو شرطي أو بناء فيجب أن يفسح الطريق أو يقدم لهم المساعدة «تلك مسألة مقدسة» أما الأطفال بعملهم ولعبهم فهم في نظرهم ليسوا مهمين على الإطلاق، يدفعوتهم جانباً ويصرخون في وجههم، هل الاطفال أقل أهمية من الكبار؟ أو لا يقومون بعمل الخير والصواب كالكبار؟ لا، على العكس، كل ما في الأمر

أن الكبار أقوياء يعطون الأوامر ويتحكمون، وهم في الوقت نفسه لهم ألعابهم كالأطفال تماماً، يلعبون رجال مطافئ وجنوداً، يذهبون إلى النوادي والحانات يحيطهم جو من الأهمية والسلطة والعظمة، كما لو أن كل شيء يجب أن يسير بالشكل الذي يرونه ولا شيء آخر أجمل من ذلك ولا أكثر قدسية. مع التسليم بأن هناك بعض الأذكياء حتى بين المدرسين، أليس من الغريب والباعث إلى الشك، أن وسط كل هؤلاء الناس الكبار- الذين كانوا اطفالاً- لا يوجد إلا قلة لم تنس تماماً ما هو الطفل وكيف يعيش ويعمل ويلعب ويفكر وما يحب وما يكره! قليلون جداً الذين ما زالوا يعرفون ذلك. دعك من الطغاة والسوقة الذين يحتقرون ويكرهون الأطفال، يصدونهم وينظرون إليهم بازدراء وارتياب ويشعرون أحياناً بالخوف منهم، فحتى أصحاب النيات الطيبة الذين يحبون أحياناً أن يتلطفوا ويتنازلوا بالالتفات إلي الأطفال، معظمهم ليس لديه فكرة عما هو مهم لدى الطفل، وإذا أرادوا أن يتواصلوا معه حاولوا بجهد وحيرة أن يصغروا أنفسهم ليصبحوا أطفالاً، لكنهم يبدون كأطفال مزيفين، نوع مخترع من الاطفال، كاريكاتيري وسخيف. كل هؤلاء الكبار، معظمهم تقريباً، يعيشون في عالم مختلف، يتنفسون هواء مختلفاً، وهم في أحيان كثيرة، ليسوا أكثر ذكاء من الاطفال، وغالباً ليس لهم ميزة عليهم سوى القوة الغامضة، هم الأقوى، وإذا لم نطعهم استطاعوا ضربنا وإجبارنا على طاعتهم، لكن هل يعتبر ذلك تفوقاً حقاً، أليس أي فيل أو ثور أكثر قوة من أي فرد من هؤلاء الكبار؟ لكن بيدهم القوة والأمر، وعالمهم وطريقة حياتهم هي الصواب دوماً. ومع ذلك، وهذا ما لاحظته في بعض المناسبات وكلها مخيفة، أن هناك كثيراً من الكبار يحسدوننا

نحن الأطفال، وأحياناً يعبرون عن ذلك بشكل ساذج ومفضوح ويقولون- طبعاً مع تنهيدة- أنتم أيها الأطفال سعداء. وإذا لم يكن ما يقولونة تظاهراً، وهو ليس كذلك كما عرفت، فإن الكبار الأقوياء المبجلين الآمرين، ليسوا بأي شكل أسعد منا، نحن الذين علينا أن نطيعهم، ونبدي لهم الاحترام العميق .

في"ألبوم" الموسيقى الذي كنت أتعلم منه، كانت هناك أغنية بلازمة مذهلة تقول «كم هو مبارك أن تكون طفلاً ثانية» هنا يكمن اللغز، هناك شيء ما نملكه نحن الأطفال وينقص الكبار، ليس الأمر إذن أنهم أكبر وأقوى، فهم أفقر منا في نواح أخرى، نحن نحسدهم غالباً على أشكالهم المهيبة، ومناصبهم، وحريتهم الظاهرية، وواقعهم ولحاهم وسراويلهم الطويلة، وهم في الوقت نفسه يحسدوننا نحن الصغار حتى في أغانيهم التي يؤلفونها.

في ذلك الوقت وبرغم كل شيء، كنت سعيداً ،صحيح أن هناك الكثير في العالم وحتى في المدرسة تمنيت أن أراه بشكل مغاير، لكني كنت سعيداً، لقد تعلمت من جهات عدة أن الانسان لا يخطو على الأرض من أجل ملذاته الخاصة فقط، وأن السعادة الحقيقية تأتي فقط إلى الذين أثبتوا أنهم يستحقونها، وقد قيل ذلك في أمثال وحكم كثيرة تعلمتها وبدت لي مؤثرة وجميلة لكنها لم تؤثر في نفسي كثيراً برغم أنها تجذب انتباه والدي وتعجبه، فإذا سارت أموري على نحو سيء، وإذا مرضت أو عانيت من رغبات محبطة أو من صراعات مع والدّي، أو تمرد عليهما، فمن النادر أن ألجأ إلى الله، كانت لي طرقي غير المباشرة التي تقودني ثانية إلى النور، إذا فشلت مبارياتي العادية ومللت من مخزن اللعب والسكة الحديد وكتاب الحكايات الخيالية واستنفدت هذه

الأشياء أغراضها، عندئذ فقط أحصل على أجمل اللعب الاصيلة، حتى لو كانت مجرد الاستلقاء على السرير في الليل وإغماض العينين والضياع في مشهد الدوائر الملونة الرائعة التي تظهر أمامي، كم يصبح العالم آنذاك واعداً ومليئاً بالمعنى، وكم تشتعل السعادة داخلي، وينتشر الغموض مجدداً.

مرت السنوات الأولى في المدرسة دون أن تغيرني كثيراً، تعلمت من التجربة أن الثقة والصدق يمكن أن يسببا الحزن، وتعلمت من قلة من المدرسين اللامبالين الفنون الأكثر أهمية في الكذب والتنكر، منذ ذلك الوقت فصاعداً، فهمت اللعبة.

ذبلت الزهرة الأولى ببطء، وتعلمت ببطء أيضاً ودون أن أعي ذلك، أغنية الحياة الزائفة، الحل الوسط والتسوية مع الواقع، مع العالم كما هو، وعرفت لماذا يحتوي كتاب الأغاني على أغنية «مبارك أن تكون طفلاً» فقد مرت عليّ ساعات كثيرة حسدت فيها أولئك الذين ما زالوا أطفالاً.

في سن الثانية عشرة، وحين اقترحوا موضوع تعلمي اللغة اليونانية، وافقت دون تردد، فقد بدا لي أنه شيء رائع وأساسي أن أصبح مع الوقت متعلماً كأبي، أو ربما كجدي لكني منذ ذلك اليوم وضعوا خطة لي، عليّ أن أدرس لأصبح واعظاً أو عالماً بفقه اللغة، لأن هناك منحة تعليمية لهذه الوظائف، وقد اتبع جدي مرة هذا الطريق. في الظاهر لا يوجد خطأ في ذلك، فجأة أصبح لي مستقبل، وعلامات تحدد لي الطريق، كل يوم وكل شهر يقربني من الهدف المرسوم، كل شيء يشير إليه، وكل شيء يقود الطريق بعيداً عن اللعب والخبرة التي ملأت أيامي السابقة، وعن الصفات التي لم تكن بلا معنى، ولكن كانت بلا هدف أو مستقبل،

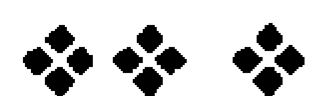
أمسكت بي حياة الكبار، في البداية من خصلة شعر أو إصبع، ولكن بسرعة شملتني وقيدتني كلياً، أضحت الحياة تُعاش للأهداف، حسب الأرقام، حياة النظام والعمل والواجبات والامتحانات، وفي القريب ستدق ساعتي أيضاً، سأتخرج، أصبح أستاذاً أو وزيراً، أقوم بزيارات أذهب إليها بقبعة عالية وقفاز من الجلد، ولا أعود أفهم الاطفال، وقد أحسدهم. لكن في الحقيقة ومن كل قلبي لم أكن أريد ذلك، لم أكن أريد ترك عالمي حيث كانت الأشياء جميلة وثمينة، كان لي هدف سري تماماً لمستقبلي، فالشيء الوحيد الذي رغبته بشدة أن أصبح ساحراً، هذا الحلم الرغبة ظل حقيقياً بالنسبة لي مدة طويلة، ولكن بدأ يفقد قوته أخيراً، كان له أعداء، قوى معارضة وقفت ضد الشيء الحقيقي الجاد الأصيل.

ورويداً رويداً ذبلت الزهرة، وخرج ببطء من اللامحدود شيء محدد يتقدم نحوها ، ذلك هو العالم الحقيقي،عالم الكبار،وأصبحت رغبتي في أن أكون ساحراً أقل قيمة في عيني، وتحولت إلي شيء طفولي، برغم إني كنت أحملها بشغف.

وهناك شيء أخر تغير، أصبح العالم اللامحدود الذي عرفته كثير الامكانات محدوداً بدرجة كبيرة مقسماً إلى حقول، مقطعاً بالأسلاك، وبالتدريج تغيرت الغابة البدائية لأيامي السابقة، وتجمدت الجنة من حولي، ولم أعد كما كنت أميراً أو ملكاً في أرض الممكن، ولن أصبح ساحراً. كنت أتعلم اليونانية وخلال سنتين ستضاف لي العبرية، وبعد ست سنوات سأدخل الجامعة. هذا الانكماش حدث بشكل خفي، اختفي السحر بشكل خفي أيضاً والقصة الرائعة في كتاب جدي ما زالت جميلة، لكنها كانت في

صفحة معينة أحفظ رقمها، وهي هناك اليوم وغداً وفي كل ساعة، لم تكن هناك معجزة، التمثال الراقص من الهند يضحك بلا مبالاة، صُنع من البرونز، لم أعد أنظر إليه، ولم يعد ينظر لي شزراً، والأسوأ من كل ذلك أني لم أعد أرى الرجل الرمادي الصغير، وأحاطني البؤس من كل ناحية، فالكثير الكثير أصبح ضيقاً بعد أن كان واسعاً، والكثير أصبح مبهرجاً بعد أن كان ذهبياً.

ولكني أدركت ذلك بشكل غامض، فتحت جلدي ما زلت مرحاً وطموحاً، تعلمت السباحة والزحلقة علي الجليد، كنت الأول في اليونانية وبدأ كل شيء يسير بروعة، لكن كان له لون أبهت وصوت خاو نوعاً ما، وأصبحت أمل من رؤية «أنّا»، وضاع مني شيء ما خلسة، لا يلتفت المرء لفقده وراح دون زعل، والآن أحتاج إلي حافز أقوي، إذا رغبت أن أشعر بنفسي وأمتلئ بالحماسة، عليّ أن أهز نفسي وآخذ خطوة إحماء. أصبحت أتذوق الأطعمة المشبعة بالتوابل، وأقضم الحلويات غالبًا، أسرق بعضها لأغمر نفسي ببعض السعادة الخاصة، فالأشياء لم تعد حية ومحببة بدرجة كافية، بدأت البنات تجذبني منذ ذلك اليوم الذي قادني فيه الرجل الصغير إلى بيت «أنّا».



في المدرسة

في المدرسة

لم أحب وأحترم في حياتي المدرسية سوى اثنين من المدرسين، وأعترف أنه كان لهما تأثير كبير علي نفسي، وكان باستطاعتهما توجيهي بالإشارة أو حركة العين . الأول كان مدرساً في مدرسة كالف اللاتينية، واسمه شميد، وكان مكروهاً لدرجة كبيرة من كل التلاميذ، لقسوته ومزاجه الشرير. وأضحى شخصية مهمة لي، حين بدأنا نتلقى دروس اللغة اليونانية على يديه، وكنا آنذاك في الثانية عشرة من العمر.

وقد اعتدنا في هذه المدرسة اللاتينية الريفية الصغيرة، إما أن نخاف المدرسين ونكرههم، نتجنبهم ونخدعهم، أو نسخر منهم ونحتقرهم. فهم يملكون القوة والسلطة، سلطة حقيقية راسخة وكبيرة، سلطة لايستحقون أن يمتلكوها إطلاقاً، فهي تستخدم غالباً بشكل مخيف وطرق لاإنسانية. وكان شائعاً آنذاك الضرب علي الأيدي وقرص الأذن حتى انبثاق الدم منها ، ببساطة كانت هذه السلطة التعليمية قوة عدوانية، مرعبة ومكروهة. فالمدرس كان يملك القوة، لأنه في موقع يستطيع فيه أن يملكها ، فهو يمثل الفكر والإنسانية، وهو الذي يلقننا بعض المعارف الطفيفة بالعالم الأكبر.

ولم نكن قد جربنا أو رأينا مثل هذا الاستخدام للقوة من المدرسين في مدرستنا الابتدائية. قابلنا، في مدرستنا الابتدائية، بعضاً من المدرسين الطيبين، الذين يخففون من ملل المدرسة، لنا ولهم، بالامبالاة أو بالتحديق من النافذة، أو بقراءة الروايات ونحن مشغولون بكتابة التمارين، وقابلنا أيضاً مدرسين أشراراً يثيرون الغيظ بتصرفاتهم الغريبة، وتعرضنا لشد الشعر، والضرب على الرأس (أحدهم كان طاغية لايرحم، كان يلقي الدرس وهو يضرب رؤوس الطلبة الكسالى بمفتاحه الثقيل بإيقاع موسيقي)، وأيضاً عرفنا مدرسين يتبعهم الطالب بسرور وحماسة، ويجهد نفسه من أجل إرضائهم، ويغفر لهم ظلمهم ومزاجهم السيء، ويشكرهم؛ لأنهم كشفوا له عوالم جديدة، ويظل متشوقاً لتقديم الشكر لهم، وهذه الحالة ظلت حتى الآن وراء فهمنا وإدراكنا.

المهم، لأتحدث الآن عن الاستاذ شميد. كان في الفصل خمسة وعشرون تلميذاً تقريباً، قرر خمسة منهم دراسة الإنسانيات، وسموا بالإنسانيين أو اليونانيين، بينما التحق باقي الفصل بدراسة موضوعات خفيفة كالرسم والتاريخ الطبيعي وما شابه. وبدأنا نحن الخمسة دراسة اللغة اليونانية على يد الأستاذ شميد.

كان مدرساً لايمكن لأحد أن يحبه، شاحب اللون شحوباً مرضياً، مهموماً دائماً، عابس الوجه، ناعم الحلاقة، أسود الشعر، وقوراً وسوداوي المزاج. وإذا حدث وتلاطف معنا، تحدث بلهجة تهكمية ساخرة. ولا أعرف السبب الذي جعلني أقف ضد حكم الإجماع الذي أصدره الفصل عليه، ربما تأثرت بتعاسته، كان نحيلاً، يبدو وكأنه يعاني مرضاً ما، له زوجة مريضة، إنسانة رقيقة قليلة الخروج من البيت، وكان يعيش كمعظم المدرسين في

فقر بالغ، ظروف خاصة، قد تكون صحة زوجته، منعته من زيادة دخله الضئيل كما يفعل المدرسون الآخرون بقيامهم بأعمال إضافية أخرى خارج نطاق التدريس، وهذه الحقيقة جعلته في موقف متميز عن باقي المدرسين.

والآن، وقد أضيفت إلى دراستنا اللغة اليونانية، بدا لنا نحن الخمسة بأننا أرستقراطية مثقفة وسط زملائنا. كان هدفنا بهذا الاختيار هو الدراسات العليا، بينما الآخرون كانوا قد قرروا مصيرهم بأن يصبحوا تجاراً أو عمالاً يدويين وبدأنا تعلم هذه اللغة اللاتينية، هذه اللغة التي لايتعلمها المرء بهدف كسب النقود، أو لتمكنه من السفر حول العالم، بل ليكون مطلعاً وعليماً بأعمال سقراط وأفلاطون وهومر. ملامح معينه من ذلك العالم كانت معروفة لدي؛ لأن البحوث اليونانية كانت مألوفة لوالدي وأجدادي، ومن خلال كتاب شواب SCHWAB «أساطير العالم القديم» عرفت منذ فترة مبكرة أوليس وبولوفيموس وفايتون وإيكاروس وبحارة سفينة الأرجو وتنتالوس، كما كان في كتاب المطالعة الذي ندرسه قصيدة للشاعر هولدرين، وسط قطع عديدة مبتذلة، تقف كعصفور الجنة، وبصراحة فهمتها نصف فهم، ولكنها كانت عذبة لدرجة لامتناهية، وأدركت علاقتها السرية بعالم اليونان بغموض.

هذا المدرس- شميد- لم يفعل شيئاً لجعل سنتنا الدراسية سهلة ومريحة، بل زادها صعوبة، وصعوبة لا مبرر لها. كان يطلب الكثير، على الأقل منا نحن الذين ندرس الإنسانيات، ولم يكن قاسياً فقط بل عنيفاً في معاملته، وذا مزاج سيء دائماً. كان يفاجئنا بنوبات من الغضب نخافه بسببها، ونصبح كسمك صغير حوصر بسد من الخوف يلاحقه رمح ليطعنه. وقد تعودنا على ذلك

من مدرسين آخرين، لكن مع شميد جربت شيئاً جديداً. جربت بجانب الخوف الاحترام، واكتشفت أنك يمكن أن تحب وتحترم رجلاً قد يكون عدوك. أحياناً، في ساعات غضبه السوداء، وحين يكون وجهه المثقب تحت شعره الأسود مأساوياً مضطهداً وماكراً، أفكر بأنه يشبه الملك شاؤول ملك اليهود في فترة اكتئابه (بعد هزيمته على أيدي الفلسطينيين). لكنه حين يتخلص من هذه الحالة، يبدو وجهه هادئاً، ويبدأ في رسم الحروف اليونانية علي السبورة، ويتحدث عن خصائص وقواعد اللغة اليونانية بطريقة تشعرك كم هي معقدة وصعبة مهنة التعليم. لكني وقعت في غرام اللغة اليونانية برغم رعبي من حصتها، وكنت أرسم في كراستي المدرسية الحروف اليونانية وأنا مأخوذ كأنها رموز سحرية.

خلال هذه السنة الأولى في دراستي لليونانية وقعت مريضاً بمرض لم يكتشف له علاج بعد، وسماه الأطباء «آلام النمو». أعطوني زيت كبد الحوت وحامض السلسليك مع دهن الركبتين بالاثيتول .

استمتعت بمرضي تماماً، فبرغم مثاليتى فقد كنت أخاف وأكره المدرسة ولا يمكن إلا أن أعتبر هذا المرض الذي داهمني في منتصف العام الدراسي، هدية أو نعمة إلهية للخلاص من المدرسة.

ظللت على السرير فترة طويلة، وكان الحائط بجانب السرير من الخشب المدهون باللون الابيض، وعلى هذا السطح المريح بدأت أرسم بالألوان المائية، وقد رسمت في مستوى -رأسي- منظراً كان من المفترض أن يصور «البحارة السبعة» وقد ضحك منه إخوتي من كل قلوبهم. وحين مر أسبوعان وثلاثة وأنا ما زلت طريح الفراش، بدأ القلق يساور العائلة بأني سأتخلف في دروس

اليونانية إذا طال هذا الأمر. واستُدعي أحد زملائي في الفصل ليطلعني على ما أخذوه في المدرسة، وبدا من الواضح أن السيد شميد قد قطع شوطاً بعيداً في دروس قواعد اللغة اليونانية، وكان علي أن أفهمها، وتحت أعين البحارة السبعة كافحت كسلي ساعات طويلة، ومشكلة تصريف الأفعال اليونانية، أحياناً كان أبي يساعدني، ولكن حين تحسنت صحتي وأصبحت قادراً على المشي، وكنت ما زلت متخلفاً كثيراً في اليونانية، فكر أبي بأن بعض الدروس من السيد شميد أضحت ضرورية ورحب السيد شميد بإعطائي هذه الدروس، وهكذا ولفترة قصيرة كنت أذهب يوماً بعد يوم إلى شقته المعتمة الكئيبة، حيث كانت زوجته - قليلة الكلام- تناضل مرضاً مميتاً، نادراً ما كنت أراها، وقد ماتت بعد ذلك بفترة قصيرة. كانت الساعات في هذه الشقة الكئيبة كأنها ساعات مسحورة، في اللحظة التي أتخطى فيها عتبة الباب كنت أدخل عالماً مختلفاً مرعباً غير حقيقي. كنت أجد الرجل الرزين المحترم الطاغية المخيف الذي عرفته في المدرسة، وقد تغير بطريقة غريبة. وبدأت أفهم بالبديهة تعبير الحزن المرتسم على وجهه، لقد تألمت من أجله، وتألمت؛ لأن مزاجه سيء عادة، أخذني مرتين للنزهة في الهواء الطلق دون أن يرهقني بالقواعد وباللغة اليونانية، في هذه النزهات القصيرة كان كريماً معي وصديقاً لي دون سخرية، ودون تغير مفاجئ في المزاج، سألني عن هوايتي وعن أحلامي المستقبلية، منذ ذلك الوقت أحببته، برغم أنه بمجرد العودة إلى المدرسة ثانية، بدا أنه نسي هذه النزهات كلية. أذكر بعد دفن زوجته، أصبحت عادته في دفع شعره الطويل إلى الوراء عن جبهته، تتكرر كثيراً، كما أنه كان صعباً جداً في ذلك الوقت،

وأعتقد أني كنت التلميذ الوحيد من تلامذته الذي أحبه، برغم فظاظته وأطواره التي لا يمكن التنبوء بها.

بعد فترة وجيزة من إنهاء السنة الدراسية مع شميد غادرت بلدتي ومدرستها لأول مرة وحدث هذا لأسباب تعليمية وتأديبية، ففي ذلك الوقت كنت ولداً مشاغباً ومشاكساً، وحار والديّ في الإجراء الذي يتخذانه معي، كما كان يجب أن أستعد لأداء امتحان المقاطعة، هذا الامتحان الرسمي الذي يعقد كل صيف على مستوى المقاطعة-مقاطعة ورتمبرج-وكان امتحاناً مهماً جداً، لأن من ينجح فيه يُمنح مكاناً في معهد لاهوتي وبمنحة تعليمية، وقد تقرر أن أخوض ذلك الامتحان. وكانت هناك مدارس معينة في المنطقة متخصصة في التدريس للاستعداد لهذا الامتحان.

ولإحدى هذه المدارس تم إرسالي، كانت المدرسة اللاتينية في كوبنجن، حين كان يرأسها ولمدة سنوات العميد العجوز «باور» الذى كان يدفع بالتلاميذ لدخول امتحان المقاطعة، وقد اشتهر بذلك في كل المنطقة، وكان يحتشد حوله، سنة وراء سنة، مجموعة من الطلبة الطموحين أرسلهم أهلهم من جميع أنحاء المقاطعة. وقد اكتسب العميد باور منذ سنوات سمعة بأنه فظ، مغرم بفصل الطلبة من المدرسة، وقد كان أحد أقاربي تلميذا له منذ سنوات، ونال علقة ساخنة على يديه. ولكنه الآن، وقد أصبح رجلاً عجوزاً، فإنه يُعتبر رجلاًعظيماً غريب الأطوار، يطلبه الكثير من تلامذته، لكنه يكون دوماً لطيفاً معهم.

بعد الوداع المؤلم لأول مرة لبيت العائلة، كنت أقف بلا ذرة من الخوف، أمسك بيد أمي خارج مكتب العميد الشهير، أعتقد أن أمي لم تسترح له في بادئ الأمر، حين تقدم يدعونا لدخول عرينه،

رجل عجوز، محني الظهر، ذو شعر رمادي متشابك، وعيون جاحظة محمرة، يرتدي بدلة قديمة لا يمكن وصفها، كانت خضراء وتغير لونها، يلبس نظارات تقف على أرنبة أنفه. ويمسك بيده اليمنى غليوناً طويلاً له تجويف من الصيني يصل تقريباً إلى الأرض، ينفث منه باستمرار سحباً كثيفة من الدخان في غرفة مملوءة بالدخان أصلاً، وحتى في الفصل لا يترك غليونه. هذا الرجل العجوز بظهره المحني وشكله المهمل، وملابسه المتهدلة القديمة، والتعبير الحزين المرسوم على وجهه ، وشبشبه الذي بلا شكل، وغليونه الطويل المدخن، بدا لي كساحر عجوز وُضعت تحت حمايته، وفكرت بأن الأمور قد تكون مرعبة في هذا المكان الرمادي المعفر القديم، وكأنه من العالم الآخر، وأيضاً من الممكن التخيل بأن الأمور قد تكون سارة ومفرحة، على كل حال قد يكون شيئاً غريباً، فلأعتبرها مغامرة، أو تجربة، وكنت على استعداد أن أقابله في منتصف الطريق.

ولكن كان عليّ، أولاً أن أتحمل لحظة الوداع على المحطة، حين قبلتني أمي وباركتني. صعدت إلى القطار وتحرك بي، ولأول مرة في حياتي أقف في العالم وحيداً، عليّ الآن أن أدافع عن نفسي وأشق طريقي، ولم أستطع أن أفعل ذلك حتى الآن، وبعد أن اشتعل رأسي شيباً.

قبل فراق أمي، صليت معها، وبرغم تقواي في ذلك الوقت لم تكن شيئاً يمكن التباهي به، إلا أنني أثناء صلواتها ودعواتها، صممت من كل قلبي أن أتصرف وأنا بعيدعن البيت بما لا يلحق بها أي عار. على المدى الطويل لم أنجح في ذلك، فسنوات دراستي الأخيرة سببت لها ولي عواصف عاتية ومحاكمات، وخيبة أمل

وحزن كثير ودموع أكثر، والعديد من النزاعات وسوء الفهم. لكن في ذلك الوقت ظللت مع نفسي، وأوفيت بوعدي وتصرفت بشكل جيد، لكن ذلك لم يكن رأى الطلبة أو المشرفة على البيت الذي عشت فيه مع أربعة أولاد آخرين. هذه المشرفة التي تعتني بنا وبالبيت لم استطع احترامها وإطاعتها بالطريقة التي كانت تنتظرها ممن هم تحت رعايتها، لم أكن في نظرها أتصرف بشكل جيد أبداً، مع أن هناك أياماً كنت أغدو فيها أكثر سحراً، وأدفعها إلى الابتسام. كانت خبيرة في الأشياء التي أعتبرها تافهة، وذات يوم مشؤوم قمت ببعض الأعمال الصبيانية فاستدعت أخاها الضخم ذا العضلات ليضربني، ثرت بعناد وكدت ألقي بنفسي من النافذة، أو أغرز أسناني في عنق الرجل، على أن أسمح لشخص أن يعاقبني، هو، في رأيي، ليس له الحق في ذلك، لم يجرؤ على لمسي، وانسحب دون أن يحقق غرضه.

لم أحب بلدة كوينجن، فالعالم الذي قُذفت فيه لم يرق لي، كانت مكاناً كئيباً ومجدباً وقاسياً يسلب النفس قواها، في ذلك الوقت لم تكن كوينجن قد أصبحت مدينة صناعية كما هي عليه الآن، ولكن كان فيها ست أو سبع مداخن، ونهرها الصغير بالمقارنة بالنهر الموجود ببلدتي، يبدو بائساً وهو يزحف بين أكوام الزبالة، وبرغم أن ضواحي المدينة كانت جميلة جداً، إلا أننا لم نعرفها جيدا، فلم يكن لدينا إلا فترات قصيرة للخروج، وعموما فالمدينة لم تسعدني تماماً، هذه المدينة الصناعية العادية لا يمكن مقارنتها ببلدتي، وإذا تحدثت لزملاء الدراسة -وكلهم على شاكلتي يذبل في أرض غريبة وقبح دائم عن كالف مدينتي- والحياة فيها، كنت أؤلف الحكايات التي يطلقها الشوق وحب التباهي، ولم يكن احد

ليكذبني، فأنا الوحيد من كالف الموجود في المدرسة. كل أجزاء المقاطعة ومدنها تقريباً كانت ممثلة في المدرسة، وحوالي ستة أو سبعة طلاب من كوبنجن نفسها، والآخرون جاءوا من أماكن بعيدة للاستفادة من نقطة الانطلاق المضمونة لامتحان المقاطعة.

عند نهاية إقامتنا في كوبنجن اجتاز الامتحان عدد كبير من الطلبة وكنت من بينهم، ولا يمكن أن نلوم كوبنجن إذا كانت النتيجة غير جيدة بعد ذلك. وبرغم المدينة المملة، والسجن تحت إشراف مربية قاسية، وتعاسة الجانب الخارجي من حياتي في المدينة، بدرجة كبيرة، فإن هذه الفترة (سنة ونصف) كانت مثمرة ومهمة في حياتي. فالعلاقة بين مدرس وتلميذ والتي لا تنتهي فائدتها مع كونها علاقة ماكرة بين مدرس مثقف وطفل موهوب، وصلت إلى إزهار كامل في حالة الأستاذ باور، ذلك الرجل القريب، العجوز المرعب تقريباً، بنزواته التي لا تحصى، والذي يتلصص بعينيه من وراء نظارته الصغيرة الخضراء، والذي يملأ غرفة الفصل المزدحمة بدخان غليونه، أصبح في نظري -لفترة- قائداً ومثالاً يُحتذى، وجهبذاً، وشبه إله، كان لنا مدرسان آخران، لكنهما كأن لم يوجدا بالنسبة لي، لقد تواريا خلف الرجل المحبوب المرعب المبجل. وهكذا فإن الحياة غير المقبولة في كوبنجن اختفت عن ناظري، وحتى صداقتي مع زملائي الطلبة تضاءلت إلى لا شيء تقريبا، بجانب ذلك الرجل المبجل، في ذلك الوقت، وصباي في عنفوانه، وابتداء محاذير ومخاطر الحب الجنسي، أضحت المدرسة -ذلك المعهد المكروه دوما- النقطة المحورية في حياتي لمدة أكثر من سنة، يدور حولها كل شيء حتى أحلامي وافكاري أثناء الإجازة، وأنا، الذي كنت دائماً شديد الحساسية، وذا عين ناقدة، وأدافع عن نفسي

حتى الموت ضد أي أستبعاد أو إخضاع، أصبحت كلياً ممسوساً ومسحوراً بهذا الرجل العجوز الغامض، ببساطة لأنه ضرب على وتر مثالياتي وقدراتي، كان يبدو عليه أنه لا يرى عدم نضجي وشقاوتي ونقصي، كان يفترض الأفضل فيّ، وينظر إلى الإنجازات الكبرى كأنها عادية. وكان لا يحتاج لاستخدام كلمات كثيرة ليبدي استحسانه، لو علق على تمارين اللغة اللاتينية بقوله «لقد أنجزت ذلك بشكل جيد يا هيس»أظل أياماً سعيداً ومشتعلاً بالحماسة، ولو حدث مثلاً أن همس لي وهو سائر دون حتى أن ينظر إليّ «لم أقتنع بما فعلت، يمكنك أن تكون أفضل»، كنت أقاسي وأقطع أشواطاً بعيدة لأسترضي شبه الإله، كان يحدثني، باللاتينية غالباً، ويترجم اسمي بها قائلا: شاتوس.

وليس هناك طريقة لمعرفة مدى مشاركة زملائي الطلاب لتجربة، كهذه العلاقة الخاصة تماماً بين مدرس وتلميذ، بعض أخلص اصدقائي، والمنافسين لي، كانوا مثلي تماماً تحت سحر هذا العجوز الساحر للأرواح، ولو حاولت أن أفهم طبيعة نفسي أيام الشباب . فإني أجد أن أفضل وأعظم منتج منها - بالرغم من حالات التمرد المتعددة والسلبيات الكثيرة- هو القدرة على الشعور بالتبجيل والاحترام، وأن روحي تنتعش وتزهر وتضحى أكثر جمالاً حين يمكنها أن تعشق وتقدر وتبجل في نضالها من أجل هدف أسمى هذه السعادة التي أدركها والدي مبكراً وزرعها داخلي، والتي ذوت بسبب مدرسين باهتين عاديين وازدهرت قليلاً بفضل الأستاذ المرور شميد ووصلت إلى إزهارها الكامل لأول وآخر مرة عند الأستاذ باور.

لو لم يفعل أستاذنا سوى أن يجعل بعض أفضل تلامذته

يقعون في حب اللغة اللاتينية واليونانية ويلهمهم إيمانا بموهبتهم الفكرية ومسؤولياتهم تجاه ذلك، لكان ذلك إنجازاً كبيراً يستحق التقدير. ومع ذلك فإن الشيء الفريد وغير العادي عند مدرسنا هو مقدرته ليس فقط في معرفة أكثر تلامذته ذكاء، والنفخ في حماستهم بالتشجيع والعون، ولكن، أيضاً، في مقدرته أن يعطي اهتماماً سليماً إلى أعمار تلاميذه وإلى صبيانيتهم وعشقهم للعب. فقد كان هذا الرجل الذكي، السقراطي- نسبة إلى سقراط- المحترم، ناظر المدرسة الأصيل، يجد طرقاً مختلفة بين حين وآخر، لجعل المدرسة مكاناً جذاباً لصغار لا تتعدى أعمارهم الثالثة عشرة. هذا الرجل الحكيم بذكائه الذي علمنا به نحو اللاتينية وقواعد اليونانية، كانت لديه بصيرة تعليمية دائمة كانت تسعدنا نحن الأولاد، وعلى المرء أن يكون لديه فكرة ما عن قسوة وجحود وملل المدرسة اللاتينية في ذلك الوقت، ليستطيع أن يتخيل كم يبدو هذا الرجل مجدداً ومُلهماً وأصيلاً في وسط جمهور عادي من البيروقراطيين الجامدين، حتى مظهره الخارجي، وذلك المظهر الفنتازي الذي يجعلك في البداية ترغب في الضحك، أصبح أداة سلطته وفرض نظامه، ويغض النظر عن غرابة أطواره وهوايته التي لا تتناسب تماماً مع تأكيد سلطته، فقد أوجد وسائل تعليمية جديدة، مثلاً غليونه الطويل الذي أرعب أمي، لم يعد بالنسبة لنا نحن التلاميذ، بعد فترة قصيرة، مضحكاً أو لازمة مزعجة، بل أصبح نوعاً من الصولجان ورمزاً للقوة، وكان التلميذ المحسود منا والمفضل لديه هو الذي يسمح له بحمل الغليون لفترة، أو يدعه ينظفه ويعدّه للتدخين، وكانت هناك أعمال نعتبر تكليفه لنا بها شرفاً ونتسابق لعملها بشغف، تنظيف مكتبه مثلاً وقد قمت به

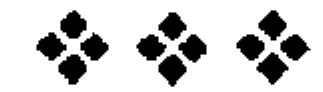
فترة من الوقت، حيث كنت أنظف مكتبه كل يوم بممسحة على شكل قدمي أرنب، وحين أعفيت من هذا العمل وأعطي لطالب آخر، شعرت كأني عوقبت بشدة.

في أيام الشتاء، إذا كانت الشمس مشرقة على النوافذ المغطاة بالثلج، وكنا في غرفة الدراسة المملوءة بالدخان والحر، يقول مدرسنا فجأة: يا أولاد إن الجو يشع بشاعة هنا والشمس ساطعة في الخارج. تسابقوا حول المدرسة وقبل أن تخرجوا افتحوا النوافذ تماماً. وكان أحيانا يدعونا بلا توقع حين نكون مثقلين بالعمل -نحن الذين نستعد لامتحان المقاطعة- إلى بيته حيث نجد في غرفة غريبة طاولة كبيرة، عليها عدد من صناديق كرتونية مملوءة بلعب من الجنود، نرتبها في جيوش تتعارك، وحين يحتدم القتال، كان العميد ينفث بوقار سحابات الدخان من غليونه بين المتحاربين.

الأشياء الجميلة دائماً عابرة، والأوقات السعيدة لا تستمر طويلاً، إذا فكرت في أيام كوينجن تلك، حين كنت أحترم وأحب أستاذي الجليل، وكنت مأخوذاً بالدراسة قلباً وروحاً، فإني أفكر دوماً في عطلة صيف ١٨٩٠ والتي قضيتها في بيت والديّ في كالف، لأنه في تلك العطلة لم تكن لدينا أية واجبات مدرسية، لم يكلفنا العميد باور بشيء لكنه لفت انتباهنا إلى «قواعد الحياة» لإيسوقراط، والتى كانت ضمن مقاطع اليونانية التي ندرسها، وأخبرنا أن تلاميذه في مراحل سابقة قد حفظوا هذه القواعد عن ظهر قلب، وترك لتقدير كل منا أن يأخذ بهذه الإشارة أو لايأخذ.

في عطلة الصيف تلك، تعلق بذاكرتي نزهات قليلة قمت بها مع أبي، أحياناً كنا نقضي فترة ما بعد الظهر في الغابات خارج

كالف، تحت أشجار الصنوبر العجوز البيضاء حيث تكثر نباتات عود الريح والتوت الشوكي بكثرة وفي المساحات التي قطعت منها الأشجار، تتفتح نباتات خوخ الماء وتطير فراشات الصيف السوداء المزدانة بخطوط بنية أو حمراء زاهية. كنا نتجول أنا وأبي في الغابة أو نتسابق على أطرافها، وسألني مرة: إلى أين وصلت مع ايسوقراط؟ فقد كنت أجلس كل يوم فترة قصيرة لحفظ «قواعد الحياة». وحتى اليوم فإن الجملة الأولى من إيسوقراط هي التي أحفظها فقط من النثر اليوناني، تلك الجملة وبعض أشعار هومر، هو كل ما بقي في ذاكرتي من تعلم اللغة اليونانية، وحتى في تلك الفترة لم أستطع حفظ كل «قواعد الحياة»، عدة عشرات من الجمل هي التى حفظتها غيباً، وظللت أحفظها لفترة وأستفيد منها، ولكنها انكمشت في الذاكرة مع مرور السنين، مثل أي شيء يملكه ويظن حقيقة أنه سوف يملكه. فاليوم لا أعرف أي شيء من اللغة اليونانية، ومعظم ما حفظته من اللغة اللاتينية قد تلاشى، وكان يمكن أن أنساها تماماً لولا أن أحد زملائي في كوينجن والذي لا يزال حياً ولا يزال صديقي، يكتب لي من وقت لآخر خطاباً باللاتينية حين اقرأه شاقاً طريقي وسط الجمل الكلاسيكية جميلة التركيب، تعبر ذاكرتي رائحة باهتة لحديقة شبابي، ودخان الرجل العجوز عميد المعهد «باور»



مشوار الحياة مختصراً

مشوار الحياة مختصراً

ولدت في نهاية العصر الحديث، بعد فترة قليلة من انتهاء العصور الوسطى، في ساعة مبكرة من مساء يوم حار من أيام شهر يوليه ١٨٧٧، وحرارة تلك الساعة التي ولدت فيها، هي التى أحببتها بلا وعي، وبحثت عنها طوال عمري بعد ذلك، وحين لا أجدها، أفتقدها بشوق شديد، لم أستطع الحياة في بلاد باردة أبداً، وكل رحلات حياتي التي قمت بها كانت تتجه إلى الجنوب.

كنت طفلاً لأبوين تقيين، كانت مشاعري نحوهما يمتزج فيها الحب بالحنان، ولولا تعرفي على الوصية الرابعة الخاصة بالوالدين لكانت مشاعري نحوهما أكثر حنوا. فلسوء الحظ فإن الوصايا كان لها دائماً تأثير مدمر على نفسي بغض النظر عن صواب ما تشير إليه. فالحَمَل وسلاسة القيادة مرتبطان معا كالصابون ورغوته. كنت أتصرف دائماً تجاه أي نوع من الوصايا، وخاصة أيام شبابي، فعند سماع كلمة «يجب عليك» ينفر كل عضو في جسمي وأصبح عنيداً، وكما يمكن أن يتخيل المرء، فهذه الصفة كان لها تأثير سيء وبعيد المدى خلال سنوات دراستي. لقد علمنا مدرسونا في ذلك الموضوع المسلي المسمى بالتاريخ، أن العالم قد حكمه وقاده رجال

ابتدعوا قوانينهم الخاصة، وحطموا التقاليد، وأن علينا أن نبجل هؤلاء الرجال، ولكن هذا كان نوعاً من الخداع كبقية التعاليم التي تلقى إلينا، لأنه إذا حاول أحد منا سواء بنية حسنة أو سيئة، أن يستجمع شجاعته، ويقف ضد بعض الأوامر أو العادات السخيفة والتقاليد البالية، أو ضد طريقة أداء الأشياء؛ فإنه لا يَلقَى أى تبجيل ولا يعتبرونه مثالاً يُحتذي، بل يعاقب ويداس بخسة بالسلطة الهائلة الممنوحة للمدرسين.

ولحسن الحظ فلقد تعلمت حتى قبل سنوات الدراسة أهم شيء في الحياة وأكثرها قيمة: فلقد امتلكت حواساً متطورة بشكل جيد، حادة وفطنة، ويمكن الاعتماد عليها، وحصلت منها على متعة كبيرة، ومع أني استسلمت بعد ذلك بطريقة لا يمكن الرجوع عنها إلى إغواء الغيبيات. حتى أني أهملت الحواس لفترة، إلا أن خلفية من الحسية المهذبة، خاصة النظر والسمع، ظلت، دائماً، معي ولعبت دوراً حيوياً في عالمي الثقافي، حتى حين بدا هذا العالم مجرداً أو غير معقول. وهكذا فقد تسلحت بقدرة معينة لمواجهة الحياة قبل بدء سنوات دراستي بفترة طويلة، عرفت المدينة وما حولها، الحقول والغابات، الحدائق وورش العمال، عرفت الأشجار والطيور والفراشات، كنت أستطيع أن أغني وأصفر بفمي وأشياء كثيرة أخرى مهمة، لكي يحيا المرء حياته. وإلى كل هذا أضيفت الآن أنواع مختلفة من المعارف المدرسية، وتعلمتها بسهولة ومنحتني السعادة، خاصة اللاتينية التي كنت أكتب بها الأشعار كما أفعل باللغة الألمانية تماماً. ومن أجل فن الكذب والديبلوماسية، عليّ أن أحمد سنتي الثانية في المدرسة، والتي خلالها أتقنت هذا الفن على يد مدرس ومساعده، بعدما نغصّت

الصراحة، والثقة بالآخرين حياتي السابقة، وجرّت عليّ سنوات طفولتي المبكرة كارثة إثر أخرى، فتح عيني هذان المدرسان على حقيقة أن الحس الساخر وحب الحقيقة والصراحة ليست من الصفات التي يحبانها في التلاميذ، وقد اتهماني بالقيام بعمل شائن تافه حدث في الفصل، وكنت منه بريئاً تماماً، وحين لم يستطعا إجباري على الاعتراف بأني مرتكب الفعل، تحولت المسألة التافهة إلى تحقيق، وعذبني الاثنان واستخلصا مني ليس الاعتراف المطلوب فقط ولكن الاعتقاد بأني سبب تدهور مهنة التدريس برمتها. وأصبحت، والحمد لله. أستطيع التمييز بين المدرس الجدير بالاحترام وغيره، لكن التلف قد وقع، وأضحت علاقتي بالسلطة، أية سلطة وليست سلطة المدرسين فقط، مشوهة ومملوءة بالمرارة.

عموماً، كنت تلميذاً نجيباً خلال السنوات السبع أو الثماني الأولى في المدرسة، وكنت ضمن التلاميذ الأوائل في الفصل، وظل الأمر كذلك حتى بدأت تلك المعارك التي لابد أن يخوضها كل من يريد أن يصبح إنساناً، بدأت صراعاتي تزداد في المدرسة، ولم أفهم طبيعة تلك المعارك إلا بعد حقبتين من الزمن، كانت تدور حولي في كل اتجاه، وبرغم إرادتي، وسببت لي تعاسة كبيرة.

وكان الأمر على النحو التالي: في سن الثالثة عشرة اتضح لي أني أريد أن أكون شاعراً او لا شيء على الإطلاق. ورافقت هذه الرغبة بصيرة تبعث على الألم: فالمرء قد يصبح مدرساً أو وزيراً أو طبيباً أو رساماً أو مهندساً أو موسيقياً أو عامل بريد، فهناك طرق تقود إلى كل مهنة في العالم، متطلبات وشروط أساسية، مدارس ودورات للمبتدئين وتدريب، إلا الشاعر فلا يوجد شيء من ذلك،

ليس هناك ما يمنع أن يكون المرء شاعراً، ويعتبر شرفاً أن تكون شاعراً ناجحاً ومشهوراً ولكن لسوء الحظ حتى تصبح ناجحاً ومشهوراً تكون قد مت، أن تصبح شاعراً ذلك مستحيل، وأن ترغب في أن تصبح شاعرا، فذلك شيء مضحك ومخجل. وذلك ما اكتشفته سريعاً. وتعلمت بسرعة الدرس من هذا الموقف: يسمح لك الآخرون أن تكون شاعراً لكن لا يُسمح لك أن تريد أن تبقى شاعراً، والأكثر من ذلك أن الاهتمام بالشعر والموهبة الشعرية يثيران الشك في أعين المدرسين، فتصبح إما غير جدير بالثقة وإما موضعا للسخرية، وغالباً ما تتعرض بالفعل إلى إهانات قاتلة. الأمر مع الشاعر كما هو مع البطل ومع كل الشخصيات الرائدة القوية المبجلة القادرة، اذا كانت من الماضي فهي عظيمة، تمتليء الكتب المدرسية بمديحهم وتبجيلهم ، أما من يعيشون بيننا، في الحياة الواقعية، فالناس تكرههم، وربما اختير المدرسون خصيصاً ودرّبوا على منع ارتقاء مثل هذا الإنسان الحر وعلوه وتحقيقه أعمالاً عظيمة ذات قيمة، وهكذا رأيت بيني وبين هدفي هاويات تفغر أفواهها، لا شيء مؤكد، وكل شيء خالٍ من القيمة، شيء واحد فقط بقي ثابتاً: تصميمي على أن أكون شاعراً، سواء كان الأمر سهلاً أو صعباً، باعثاً على السخرية، أو جديراً بالاحترام، وكانت عواقب هذا التصميم -أو بالأحرى هذه الكارثة- كالتالي: بدأ هذا الصراع حين كنت في الثالثة عشرة، استهجن الناس والأهل سلوكي في البيت وفي المدرسة، حتى أني أرسلت إلى المدرسة في مدينة أخرى. بعد سنة أصبحت تلميذاً في معهد للاهوت وكنت على وشك التخرج حين هبت بداخلي عواصف قادتني فجأة للهروب من هذا المعهد الدير، عوقبت بسجن قاس

وبالطرد من المعهد.

وحاولت لفترة أن أواصل دراستي في مدرسة ثانوية، وكانت نهاية ذلك السجن والطرد. عملت صبياً لتاجر مدة ثلاثة أيام ثم هربت واختفيت لعدة أيام وليال مسبباً حزناً كبيراً لأبي وأمي.

بعد ذلك عملت مساعداً مدة ستة أشهر، ثم ولمدة سنة ونصف عملت في ورشة ميكانيكية ومصنع لصناعة ساعات الأبراج. باختصار، لمدة أربع سنوات سارت كل المحاولات معي في طريق خاطئ، لا مدرسة يمكن أن تحتويني، ولا أستمر في عمل ما لفترة طويلة، وكل المحاولات لصنع إنسان مفيد مني أنتهت بالفشل، ومرات عديدة بالعار والفضيحة، بالهروب أو الطرد، ومع ذلك كانوا يعترفون في كل مكان أن لدي الاستعداد والقدرة ودرجة معقولة من التصميم، وأني لا أصلح أن أكون إلا رجل صناعة، وكنت أنظر برعب إلى هذه التخمينات وفضائلها الكبرى، ولم أستطع أن أسيطر عليها ابدا. في سن السادسة عشرة، بعد أن انتهت تجربة الدراسة بالفشل، بدأت تثقيف ذاتي بنشاط ووعي، ومن حسن حظي أن كانت في بيت أبي مكتبة جدي الضخمة، قاعة كاملة مملوءة بالكتب القديمة، والتي تحتوي ضمن ما تحتويه كل الفلسفة والأدب الالماني في القرن الثامن عشر. وبين سن السادسة عشرة والعشرين كنت قد ملأت كمية كبيرة من الأوراق في محاولاتي الأولى لكتابة الشعر، وقرأت حوالي نصف أدب العالم، وكرست نفسي لدراسة تاريخ الفن واللغات والفلسفة بعزم وتصميم يكفي للحصول على أية درجة جامعية.

ولكي أكسب رزقي، أصبحت بائع كتب، وكنت، دائماً على وفاق مع الكتب أكثر من الآلات والعجلات المسننة التي عذبت

نفسي بها حين عملت بورشة ميكانيكية.

في البداية، كانت سباحتي في الأدب الحديث، في الواقع الأدب المعاصر، وغمرتني البهجة بمطالعته، ولكن بعد فترة، لاحظت أن في الموضوعات الروحية تبدو الحياة المعاصرة مضجرة ولا معنى لها، وأن الحياة الروحية ممكنة فقط بالرجوع الدائم إلى ما هو ماضٍ، إلى التاريخ، إلى كل ما هو قديم وبدائي. بعد زوال البهجة الأولى لهذا الاكتشاف، أصبح من الضروري أن أتوقف عن غوصي في كل ما هو حديث والاتجاه إلى القديم. حققت ذلك بالانتقال من العمل في مكتبة إلى العمل في متجر للعاديات، ومع ذلك ظللت في هذا العمل طوال احتياجي له للبقاء حياً. وتركته في سن السادسة والعشرين عند نجاحي الأدبي الأول.

وهكذا وسط كل هذه العواصف والتضحيات وصلت إلى هدفي برغم كل ما كان يبدو من استحالة للوصول إليه. لقد أصبحت شاعراً، وبدا لي أني كسبت معركة عنيدة طويلة ضد هذا العالم. ونسيت قسوة سنين الدراسة والاستعداد، والتي كنت فيها قريباً من الخراف، بل وبدأت أضحك منها، حتى علاقتي بأصدقائي، الذين يئسوا مني في السابق، عادوا يبتسمون لي مشجعين، لقد انتصرت، والآن لو قمت بأي تصرف سخيف أو تافه يعتبرونه فاتنا، وللمرة الأولى أدرك الآن العزلة المرعبة والتقشف والخطر الذي عشت فيه عاماً بعد آخر، لقد أفادني نسيم المعرفة الدافئ، بدأت أصبح إنساناً راضياً.

وسارت حياتي العامة بشكل طيب ومعقول لفترة طويلة، فعندي الزوجة والأطفال وبيت وحديقة، أكتب الكتب التي أريدها، واعتبرني الجميع شاعراً حلو المعشر، وعشت في سلام مع العالم،

وفي سنة ١٩٠٥ ساعدت في تأسيس مجلة كانت موجهة بالدرجة الأولى ضد حكومة ويلهلم الثاني دون أن أخذ هدفها السياسي بشكل جاد. وقمت برحلات ممتعة إلى سويسرا وألمانيا والنمسا وإيطاليا والهند، وبدا لي أن كل شيء يسير على ما يرام.

ثم جاء صيف ١٩١٤، وانقلب كل شيء فجأة، داخلياً وخارجياً، وبدا واضحا أن حياتنا السابقة كانت مقامة على أسس واهية من الأمن، وتبعاً لذلك بدأت فترة من البؤس، والدرس الأعظم، وجاء ما يسمى بزمن الاختبار، ولا أستطيع القول أنه وجدني مستعداً له أكثر من الآخرين، أو أغنى أو أكثر تفوقاً منهم، ما ميزني عن الآخرين في ذلك الوقت هو افتقادي للتعويض الأكبر الذي يملكونه وهو ما يسمى بالحماسة. ولذلك عدت للاقتراب من نفسي والصراع مع بيئتي. وكأني وضعت في المدرسة ثانية، وكان عليّ أن أنبذ رضائي عن نفسي وعن العالم، وفي هذه التجربة خطوت للمرة الأولى إلى عتبة المبادرة في الحياة.

لن أنسى، قط، مقابلة قصيرة حدثت خلال السنة الأولى من الحرب. ذهبت لزيارة مستشفى حربي كبير على أمل أن أجد طريقة تناسبني للقيام بعمل ما في هذه الظروف المتغيرة، وهناك قابلت عانساً عجوزاً عاشت حياتها السابقة على دخل خاص في ظروف مريحة، وتعمل الآن كممرضة في العنابر. أخبرتني بحماسة مؤثرة كم هي سعيدة وفخورة أن تخدم هنا، وأن تشهد هذا الشرف العظيم. وجدت ذلك أمراً غير مفهوم لأن الحرب في هذه الحالة قد حولت كسلها ووجودها الأناني إلى حياة نشطة ومفيدة، وكانت تعبر لي عن سعادتها في ممر مملوء بالجرحى والمصابين من القذائف، وسط عنابر مملوءة بالموتى ومن قطعت أوصالهم، وشعرت بالغثيان،

أفهم حماستها، لكنني لا يمكن أن أشاركها هذه الحماسة أو أثني عليها؛ لأنه إذا أسعد عشرة جرحى هذه السيدة وأشعلوا حماستها كممرضة، فإن سعادة مثل هؤلاء النسوة ستكون مكلفة جداً.

لا، لم أستطع مشاركة الناس فرحة الحياة في هذا العصر العظيم، ومنذ البداية قاسيت بشدة من الحرب، ولسنوات صارعت في يأس لحماية نفسي من سوء الحظ الذي يبدو أنه سيسقط عليّ من سماء زرقاء صافية، بينما كل من حولي يعمل بحماسة وفرح من هذا البؤس نفسه. وحين أقرأ مقالات الجرائد التي كتبها كتاب بارزون يكشفون فيها بركات الحرب، ودعوة التأييد العالية الصوت التي يطلقها الأساتذة، وقصائد الحرب المأخوذة من كتابات الشعراء الكبار، يزداد بؤسي وتتفاقم تعاستي.

وأفلت مني ذات يوم من سنه ١٩١٥ اعتراف علني عام ببؤس هذه الحرب، مع تعبير عن الأسف؛ لأن الناس، حتى من يسمّون أنفسهم بالروحانيين، يجدون أفضل ما يفعلونه في نشر الأكاذيب والعظة بالكراهية وشكر السماء على هذه الكارثة. ونتيجة لتعبيري عن هذا الحزن الذي يملأ قلبي، أعلن في الصحافة أني خائن -تجربة جديدة عليّ، برغم مشاغباتي ومشاحناتي مع الصحافة فلم يصل الأمر أبداً إلى أن تبصق عليّ الأغلبية؛ فقد نشر المقال الذي يضم هذه الإدانة- الاهتمام في عشرين صحيفة في بلدي، ولم يجرؤ أحد في الدفاع عني سوى اثنين من أصدقائي وسط حشد من الأصدقاء في الوسط الصحفي. بعض الأصدقاء قالوا لي أنهم كانوا يحتضنون أفعى لا صديقاً في صدورهم، وإن هذه الصدور لن تخفق إلا للرايخ وقيصر وليس إلى شخص منحط مثلي، ووصلتني زكائب رسائل من غرباء، وأبلغني الناشرون أن

كاتباً بمثل هذه الآراء المنحطة التي أحملها، لم يعد له وجود بالنسبة لهم، وعلى عدد من هذه الرسائل كان هناك شكل زخرفي كنت أراه لأول مرة: طابع بريد مستدير صغير مكتوب عليه: فليعاقب الله انجلترا.

قد يظن المرء أني سأضحك من كل قلبي على سوء الفهم هذا، لكني لم أستطع فعل شيء، هذه التجربة، غير المهمة في ذاتها، كافأتني بأن كانت السبب في التحوّل الثاني في حياتي.

حدث التحول الأول، كما تذكر، في اللحظة التي صممت أن أكون فيها شاعراً، ومنذ ذلك الوقت أصبح التلميذ النموذجي هسه تلميذاً سيئاً، يُعاقب ويُطرد، ولا يفعل شيئاً صائباً، وتسبب لوالديه ولنفسه في مصائب متتالية، كل ذلك ببساطة لأنه لا يرى إمكانية توافق بين العالم كما هو أو كما يبدو وبين صوت قلبه.

ومرة أخرى وجدت نفسي في صراع مع عالم كنت أعيش فيه حتى ذلك الوقت بنفس راضية تماماً. ومرة أخرى أدار لي كل شيء ظهره، ومرة أخرى أصبحت بائساً ووحيداً، وأصبح كل ما أقوله وأفكر به يفسّر عمداً بشكل خاطئ، ومرة أخرى رأيت هوة سحيقة تفغر فاها بين الواقع، وما بدا لي أنه الحب والخير والجمال.

ومع ذلك لم أتوقف عن محاسبة نفسي في هذا الوقت، فقد أدركت منذ زمن أن أبحث عن سبب معاناتي في داخلي وليس في العالم الخارجي، فعلى الأقل يمكن أن أرى ما بداخلي بوضوح أكثر. ولا يمكن أن يكون إنسانياً أن أتهم العالم كله بالهوس والقسوة، حتى الإله لا يحق له أن يفعل ذلك، فما بالك بشخصي الضعيف. إذا كنت في صراع مع العالم كله، فلا بد أن يكون

بداخلي كل أنواع الفوضى.

وبالفعل كان هناك اضطراب عظيم، وليس مما يسعدني أن أتصارع مع تلك الفوضى لأحولها إلى نظام. شيء واحد بدا واضحاً لي فوراً: أن الرضا الجميل الذي عشته مع العالم، لم أشتره بثمن باهظ فقط ولكنه كان فاسداً كالسلام السطحي في هذا العالم.

كنت أعتقد أني اكتسبت مكاني في العالم وأصبحت شاعراً خلال معارك الشباب الطويلة، وأن النجاح والمجد كان لهما التأثير المعتاد عليّ فأصبحت راضياً ومستريحاً، ولكن حين تمعن النظر تجد أنه من الصعب التمييز بين الشاعر وكاتب الروايات الرخيصة، لقد سارت معي الأمور بشكل جيد، ومع ذلك فالآن نلت مؤونة كافية للمسيرة الصعبة التي كانت تدريباً صحياً ومفيداً، وهكذا تعلمت أن أترك العالم يسير في طريقه، وأن أهتم بنفسي، مع تحملي نصيبي من آثام واضطراب الجميع، ويستطيع القارئ أن يكتشف ذلك في كتاباتي كلها. ومع ذلك فأنا أحتفظ بداخلي بأمل سري أنه في الوقت المناسب، فإن النابهين من ابناء وطني وأولئك الذين يشعرون بالمسئولية، سيمرون بنجاح ويجتازون اختباراً مماثلاً لما تعرضت له، وبدلاً من الأحزان واللعنات على الحرب الشريرة والعدو الشرير والثورة الشريرة، سيبرز سؤال في قلوب الآلاف: كيف أصبحت أنا نفسي جزءاً من هذا الإثم؟ وكيف يمكن أن أستعيد براءتي ونقائي؟ ولأن المرء دائماً يستطيع استرجاع براءته ونقائه حين يدرك إثمه ويقاسي للنهاية، بدلاً أن يلقي اللوم على الآخرين.

حين بدأ هذا التحول الجديد يظهر في حياتي وكتاباتي، هز

كثير من الأصدقاء رؤوسهم،، هجرني الكثيرون منهم، وذلك كان جزءاً من التغير الذي أصاب حياتي، بالضبط كفقدان منزلي وعائلتي وراحتي ،كل ما هو طيب في حياتي. كان وقتاً صعباً أقول فيه كل يوم لشيء ما وداعاً، وأندهش كل يوم بأني أستطيع تحمل الوضع، وأستمر في الحياة، وأستمر في إيجاد شيء أحبه في هذا الوجود الغريب الذي، بدا حقيقة، لا يوفر لي سوء الألم والخسارة والتحرر من الوهم.

وما عوّض خسارتي، أنه كان لي وحتى خلال سنوات الحرب، ما يشبه الملاك الحارس أو نجمة السعد، وأثناء احساسي بالألم والوحدة القاسية التي استمرت حتى بداية فترة التحول، وشعوري الملازم لي كل ساعة بأن مصيري ملعون وكريه، فإن معاناتي الخاصة وتلبسي الألم عملا كدرع واق ودفاع ضد العالم الخارجي.

ولقد قضيت سنوات الحرب في ظروف مرعبة من السياسة والتجسس والرشوة والفساد، أمور من النادر أن تتجمع في مدينة واحدة كما حدث في برن في وسط المانيا، مدينة تفيض بموجات من المدّ والجزر من دبلوماسيين وعملاء وجواسيس وصحفيين ومتأملين وانتهازيين. عشت وسط الدبلوماسيين والجنود، وأقمت علاقات مع أناس من بلاد تناصبنا العداء، وكان الجو حولي محاصراً بشبكة من التجسس المضاد، من المكائد والإدانة والاستنكار والتخمينات السياسية والشخصية، طوال السنوات التي عشتها في هذه المدينة وبرغم كل هذا الذي يحدث فيها، فإني لم ألاحظ شيئاً ولم أفهم شيئاً مما يدور حولي، كنت ملاحقاً، تجسس علي الكثيرون ، أصغى لحديثي أكثر منهم، ولم ألاحظ أو أفهم شيئاً، أصبحت موضع شك للأعداء وللأصدقاء، لأهل بلادي ولمن هم على الحياد،

عرفت كل ذلك بعد فترة طويلة، أعجب كيف استطعت الحياة محاطاً بذلك الجو دون أن يمسني شيء أو أصاب بأذى، ولكن ذلك ما حدث.

مع نهاية الحرب، التي وافقت نهاية تحولي وقمة آلامي في محاكمتي، هذا الألم لاعلاقة له بالحرب ولا بمصير العالم، وحتى هزيمة ألمانيا، التي بدت لنا مؤكدة منذ سنتين، بدت لي في ذلك الوقت ليست مرعبة. كنت غارقاً داخل نفسي، متأملاً مصيري الخاص، مع إحساس ينتابني أحياناً بأن جل البشر متورطون فيما نحن فيه، وجدت منعكساً على صفحة نفسي كل شهوة العالم للحرب والقتل، كل لامبالاته وانغماسه في الشهوات الفاضحة، كل جُبنه وكان عليّ، أولاً، أن أتخلص من احترامي لنفسي ثم رضائي عنها، ولم يكن لدي عمل إلا الاستمرار وحتى النهاية في نقد هذه الفوضى، متسلحاً بأمل يخبو أحياناً و ويزدهر أحياناً أخرى، في سبيل إعادة اكتشاف ماوراء الفوضى من طبيعة وبراءة. وكل إنسان تنبه واستيقظ ضميره فعلاً سار مرة أو عدة مرات في هذا الممر الضيق في البرية، ومحاولة الحديث للآخرين عنه مجهود غير مجد ولا مثمر. وحين خذلني الأصدقاء لم أشعر بالاشمئزاز أو النفور، وإن شعرت أحياناً بالحزن، لكن ذلك أكد لي صحة الطريق الذي أسير فيه. هؤلاء الذين كانوا أصدقاء، صدقوا حين قالوا أني كنت عطوفاً كرجل وكشاعر، ولكن موقفي الإشكالي الحالي غير محتمل. ولقد تخطيت منذ زمن قضية الذوق والسمعة، لا يوجد أحد منهم يمكن أن تكون مفرادتي مفهومة لديه. هؤلاء الأصدقاء كانوا على حق في لومي لأن كتاباتي فقدت الجمال والتناغم. كلماتهم هذه تجعلني أضحك، فماذا يعني الجمال والتناغم لرجل

يُحكم عليه بالموت! لرجل يجري وسط جدران متهاوية؟ وبرغم إيماني الذي لازمني طوال حياتي فقد لا أكون شاعراً! وكل هذا الحس الجمالي كان غلطة! ولم لا .. حتى ذلك لم يعد مهما. معظم ما ووجهت به في رحلتي عبر جحيم نفسي، كان زائفاً وبلا جدوى، وربما كان هذا ينطبق أيضاً على وهم كفاءتي وموهبتي، كم كان ذلك تافهاً في النهاية! حتى عملي الذي كان يملؤني بالفخر والمرح الطفولي لم يعد هناك أيضاً. ورأيت أن طريق خلاصي لم يعد في مملكة الشعر الغنائي، أو في الفلسفة، أو في أية مهنة من المهن المتخصصة، ولكن -ببساطة- أن أدع ذلك الشيء الحيوي والقوي والقليل داخلي أن يعيش حياته، في ولاء غير محدد الآن لذلك الجزء الذي مازال حياً داخل نفسي. تلك كانت الحياة -وذلك كان الإله، وفي النهاية حين يمضي زمن التبجيل العظيم المميت الخطر- هذا الزمن، سيبدو كل شيء مختلفاً وغريباً، لأن محتويات الوعي السابقة واسماءها هي الآن بلا معنى، وما كان مقدساً أول أمس، قد يبدو الآن مضحكاً، وأخيراً، حين انتهت الحرب بالنسبة لي أيضا في صيف ١٩١٩، انسحبت إلى ركن بعيد في سويسرا وأصبحت ناسكاً. فطوال حياتي تتلبسني بدرجة كبيرة حكمة الهند والصين (كان ذلك ميراثاً عن الأبوين والجدين)، ولأني أيضاً عبرّت عن تجاربي الجديدة جزئياً بلغة الشرق التصويرية، ولقد دُعيت غالباً بأني بوذي، ولا أستطيع إلا أن أضحك على ذلك، لأني لا أعرف ديناً أنا أكثر بعداً عنه من البوذية، ومع ذلك هناك شيء صحيح في هذا، بذرة من الحقيقة مدفونة في الأعماق وقد أدركتها -نوعا ما- في فترة لاحقة، واذا كان من الصواب التفكير بأن على الشخص أن يختار دينه لنفسه، فأنا بالتأكيد -بسبب توق داخلي-

أختار ديناً محافظا: الكونفوشيوسية أو البرهاماتية أو الكنيسة الرومانية، كان ينبغي أن أفعل ذلك، بسبب التوق إلى قطبي المضاد وليس بسبب الميل الفطري، فليست المصادفة وحدها التي جعلتني أولد لأبوين بروتستانيين تقيين، فأنا بروستانتي بالسجية والطبع أيضاً (ولا تناقض بين ذلك وبين نفوري من طائفة البروتستانيين الحالية) فالبروتستانتي الحقيقي على تعارض مع كنيسته، كما هو مع أية كنيسة أخرى، حيث إن طبيعته تجبره أن يكون أكثر رقياً من الإنسان العادى، وبهذا المعنى فإن بوذا بالتأكيد بروتستانتي.

ومنذ تحولي، أجتث من داخلي إيماني بمهنتي كشاعر، وبقيمة أعمالي الأدبية، ولم تعد تبعث فيّ فرحاً حقيقياً، ولكن على الإنسان أن يكون لديه شيء ما يفرحه، وقد أكدت على ذلك حتى وأنا في قمة أحزاني. يمكنني أن أستغني عن وجود العدل والعقل والمعنى في الحياة وفي العالم، وقد يسير العالم بشكل أفضل دون هذه المجردات، لكنني لن أستطيع العيش دون القليل من البهجة، وطلب ذلك القليل من البهجة أضحى أحد المشاعل داخلي والتي ما زلت أومن بها، ومنه أخذت العزم للتخطيط لخلق عالم جديد لنفسي. وغالباً ما أجد فرحي وسلواي أحلامي في زجاجة نبيذ، وكانت تساعد في معظم الأحيان، فطوبى لها، لكنها لم تكن كافية، واكتشفت ذات يوم بهجة جديدة تماماً عليّ، فجأة وفي سن الأربعين بدأت أرسم، ليس لأني أعتبر نفسي رساماً أو أعتزم أن أكون كذلك، بل لأن الرسم رائع، يجعل الإنسان أكثر سعادة وأكثر صبرا، كما أن أصابع المرء لا تصبح سوداء كما هي الحال في الكتابة، ولكن حمراء وزرقاء، وحتى في هذا شعر أصدقائي

بالإهانة، -ليس لي حظ معهم- حين أقوم بشيء ما لسبب ضروري، شيء جميل ومبشر بالنجاح، يغضب الآخرون، فهم يفضلون أن يبقى المرء كما هو. ولا يريدون لوجه المرء أن يتغير، ولكن وجهي لن يمتثل لهم، فأنا أصر على استمرار التغير، تلك حاجة ضرورية. وقد ألقي عليّ لوم آخر، يبدو لي عادلاً تماماً. فهم يقولون إنه ليس لدي إحساس بالواقع، فالقصائد التي كتبتها والرسومات القليلة التي رسمتها لا تتواصل مع الواقع. حين أكتب أنسى الشروط التي يراها المثقفون في الكتاب الجيد، والأكثر أهمية أنه ينقصني، في الحقيقة، الاحترام للواقع، وأعتبر أن الواقع هو آخر ما يجب أن يهتم به الفرد، لأنه بضجره الثقيل حاضر دائماً، بينما هناك أشياء أكثر جمالاً وضرورة تحتاج إلى عنايتنا وانتباهنا. صحيح أنه يجب على المرء تحت أي ظرف أن يقنع بالواقع لكن لا يجب تحت أي ظرف أن يقدسه ويبجله، لأنه حادث طارئ، حثالة الحياة. وهذا الواقع البالي المجدب والمخيب للآمال لا يمكن تغييره، إلابأفكارنا له، والإثبات عملياً أننا أقوى منه.

وغالباً يفتقد الناس في كتابتي الاحترام العادي للواقع، وحين أرسم فإني أرسم للأشجار وجوها، وأرسم البيوت تضحك وتبكي وترقص، وسواء كانت الشجرة شجرة كمثرى أو أبا فروة فلا أحددها. أعترف أن حياتي الخاصة كثيراً ما تظهر لي كالخرافة أو الأسطورة، وغالباً ما أرى وأشعر أن العالم الخارجي يتصل بعالمي الداخلي بطريقة تناغمية لا يمكن أن أسميها إلا سحرية، وقد وقعت لي بعض الأشياء العبثية و مثلا. قلت مرة ملاحظة نقدية غير مؤذية حول الشاعر الشهير شيللر، فاتهمتني كل نوادي البولينج

في جنوب ألمانيا بتدنيس مقدسات الآباء، والآن، ولعدة سنوات مضت نجحت في عدم قول أي شيء يدنس المقدسات، أو يجعل وجوه الناس تحمرّ من الغضب، واعتبر هذا تحسناً في سلوكي.

وحيث أن الواقع لا يلعب دوراً مهماً بالنسبة لي الآن، حيث أن الماضي يحتلني غالباً كأنه الحاضر، ويبدو لي الحاضر بعيداً لا حدود، لهذه الأسباب لا أستطيع فصل المستقبل عن الماضي بشكل حاد كما هو المعتاد.

سأعطي ملخصاً لحياتي وكيف أقمت منعطفها. في السنوات وحتى ١٩٣٠ كتبت قليلاً من الكتب، عازما آنذاك أن أدير ظهري لهذه المهنة وإلى الأبد. ويبقى السؤال: هل يمكن اعتباري شاعراً بالفعل وسط الشعراء؟ وقد بُحث هذا الموضوع في أطروحتين لشابين مجتهدين، ولكنهما لم يجيبا عن السؤال.

لقد اتضح بعد دراسة دقيقة للأدب الحديث أن الهالة التي تميز الشاعر أصبحت باهتة لدرجة أن الفرق بين الشعراء والكتاب الآخرين لم يعد موجوداً أو ملحوظاً. وبسبب هذه الحالة الموضوعية فإن طالبا الدكتوراة خرجا بنتيجتين عكسيتين. أحدهما، وهو الأكثر تعاطفاً، كان من رأيه أن الشعر في وضعه الهزيل المضحك لم يعد شعراً، وحيث أن الأدب غير الجيد لا يستحق أن يعيش، فعلى المرء أن يعلن وفاة ما يسمى بالشعر الآن. أما الآخر فكان معجباً بالشعر حتى التافه منه، ولم يكن مؤهلاً لإصدار حكم وكان رأيه أن من الأفضل أن نعترف بمائة شاعر غير حقيقي على أن نخطئ في الحكم على شاعر قد تسري في عروقه قطرة من دم العبقرية. انشغلت أساساً بالرسم وبالتعاويذ السحرية الصينية،

ولكن في السنوات التالية انغمست أكثر وأكثر في الموسيقى، وكان طموح حياتي بعد ذلك أن أكتب نوعاً من الأوبرا أصور فيها الحياة الإنسانية التي تسمى واقعية بجدية قليلة ممزوجة بسخرية. كثيرة .التصور السحري للحياة كان -دائماً- قريباً إلى قلبي، لم أكن أبداً رجلاً عصرياً، وكنت أعتبر «وعاء» الذهب " لفون هوفمان" وحتى" هيزيش فون اوفتر ولجن " نصوصاً أكثر واقعية من أي تاريخ طبيعي أو تاريخ للعالم- والحق إني حين أقرأ أياً من الكتابين فإني أنظر إليه كخرافات ممتعة . ولكن آلان وصلت إلى تلك المرحلة من الحياة التي لا يجدي فيها أن نأخذ في الاعتبار الاستمرار في درس وتميز شخصية كاملة بالفعل، بدل أن نسمح للأنا الجديرة بالاحترام أن تختفي مرة أخرى في الكون، وفي مواجهة القابلية للتحول، أن يأخذ الفرد مكانه في النظام الأبدي الخالد. وبدا لي أنه لا يمكن التعبير عن هذه الأفكار والمواقف تجاه الحياة، إلا عن طريق الحكايات الخرافية، وأنا اعتبر الأوبرا الشكل الأعلى للحكاية الخرافية؛ لأني لم أعد أومن بسحر الكلمة في حديثنا المميت الذي نسيء فيه استخدام الكلمات، بينما يبدو لي السحر كشجرة مثمرة ينمو علي فروعها تفاح الجنة كل يوم. أريد أن أحقق في الأوبرا التي أكتبها ما فشلت في تحقيقه في شعري، أن أضع للحياة الإنسانية معنى مبهجاً وذا قيمة، أن أمتدح براءة الطبيعة وعطاءها الدائم، وتقدم مسارها إلى النقطة التي تضطرها خلال المعاناة والتضحية إلى التحول نحو الروح، القطب الاخر البعيد، وأن أصورتأرجح الحياة بين هذين القطبين، المادة والروح، بطريقة كاملة ومفرحة كقوس قزح.

لكن للأسف، لم أنجح في إكمال هذه الاوبرا، وكانت تجربتي

معها كتجربتي مع الشعر، وصرفت النظر عنها بعدما أدركت أن كل ما أريد قوله قد قيل قبل ذلك آلاف المرات بوضوح أكثر، وبطريقة أفضل. وبعد سنوات من الدراسة الموسيقية وعدة مسودات للنص ومحاولات لتجسيد معانيه ومضامينه الحقيقية، أدركت فجأة أن ما أفعله هو الشيء نفسه الذي رأيته محققاً تماماً وبشكل كامل في الناي السحري.

وبالتالي طرحت هذا العمل جانباً، وكرست نفسي كلية للسحر الحقيقي.

فإذا كان حلمي بأن أكون فناناً كان واهماً، وإذا عجزت عن كتابة عمل مثل وعاء الذهب او الناي السحري، فإني -على الأقل- قد ولدت ساحراً، وعن طريق لاوتسي وآى تشنج عرفت منذ فترة طويلة وبشكل أكيد طبيعة ما يسمي بالواقع الطارئ أو المتغير، وخلال السحر عالجت هذا الواقع حسب رغباتي، وشعرت بسعادة كبيرة وأنا أفعل ذلك وأعترف أني لم أقتصر على الحديقة المبجلة المعروفة بالسحر الأبيض، بل جرتني تلك الشعلة الصغيرة الحية داخلي، من حين لآخر، إلى ذلك الجانب الأسود من السحر.

وبعد أن تجاوزت السبعين من العمر، ومباشرة بعد أن اختارتني جامعتان لمنحي الدكتوراه الفخرية، قدمت للمحاكمة بتهمة غواية *طفلة صغيرة باستخدام السحر*. في *السجن*، رجوتهم أن يسمحوا لي بقضاء وقتي في الرسم، ووافقوا على ذلك، وأحضر لي الأصدقاء عدة الرسم والألوان، ورسمت منظراً طبيعياً على حائط الزنزانة، وهكذا عدت ثانية إلى الفن، ومع كل ما عانيته وتحطم كثير من الآمال، إلا أن ذلك لم يمنعني من استحلاب المتعة مرة أخرى من كئوس *الفن* النبيلة، ومن إقامة عالم صغير جميل

كالطفل الذي يلعب، ومن التمتع من كل قلبي بهذا العالم والتخلي عن كل الحكمة والمجردات الإنسانية والعودة إلى شهوة الخلق البدائية.

وهكذا بدأت أرسم ثانية، أخلط الألوان وأغمس الفرش فيها وأستمتع ثانية بتجرع كل ذلك السحر الخالد: صوت الأحمر البراق المرح، ونفحة الأصفر الكامل الواضح، ودرجات الأزرق المتحركة، وموسيقى مزجهم بدرجاتها حتى الرمادي الفاتح، وسرت في هذه اللعبة سعيداً كطفل، وهكذا رسمت المنظر على جدار الزنزانة، ورسمت فيه كل ما أمتعني في الحياة: الأنهار والجبال، البحر والسحب، الفلاحون وقت الحصاد، وحشد من الأشياء الجميلة التي أسعدتني في حياتي، وفي وسط المنظر رسمت خطاً صغيراً للسكة الحديد يتجه مباشرة للجبال وطرفه يندفن فيها كدودة في تفاحة، لقد دخلت القاطرة نفقاً صغيراً بالفعل، يخرج من فتحته المظلمة دخان قاتم.

لم يسبق أن أسعدني لعبي مثل هذه المرة، وعودتي للفن لم تنسني فقط أني سجين. ورجل يحمل أملاً ضئيلاً في أن ينهي حياته في مكان آخر غير هذا السجن، بل أنستني تماريني السحرية، وبدا لي أني ساحر بالفعل حين أرسم بفرشاتي الرفيعة شجرة صغيرة وسحابة جميلة.

وفي الوقت. نفسه، فإن ما يسمى بالواقع، والذي اسقطته تماماً من حسابي، كان يسخر من احلامي بقسوة، ويمزقها مرات ومرات. ففي كل يوم كان يقودني شرطي إلى غرفة موحشة ثقيلة الظل، حيث يجلس رجال عدوانيون وسط أوراق كثيرة. ويبدأون استجوابي، ويرفضون تصديقي، ينبحون في وجهي ويهددونني

مرة كأني طفل في الثالثة من العمر، ومرة كأني مجرم عتيد. ولا يحتاج المرء لأن يكون متهماً ليعرف عمل المحاكم الجهنمي من أوراق ومراسيم حكومية وخلافه.

ومن بين أنواع الجحيم المختلفة والغريبة والتي خلقها الإنسان لنفسه فإن المحاكم هي الأكثر جهنمية، وكل ما عليك أن تفعله لتجد نفسك وسط هذه أن تتزوج أو تطلب جواز سفر أو شهادة مواطنة. فستقضي ساعات عصيبة في هذا العالم الورقي الخانق، يستجوبك اشخاص يبعثون على الضيق والملل، ساخطين وعجلين، يكلمونك بجفاء، ويكذبونك حتى في أبسط الحالات وأصدقها، ويعاملونك مرة كتلميذ في مدرسة، ومرة كمجرم اعتاد الإجرام. كل إنسان يعرف هذه الأمور. وكنت سأختنق وأصبح هباء في جهنم الأوراق هذه لولا رسوماتي التي أنعشتني وأراحتني، وتلك اللوحة، المنظر الجميل الصغير الذي جدّد لي الهواء والحياة.

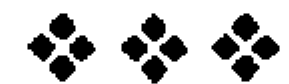
كنت أقف يوماً أمام لوحتي حين جاء الحراس مهرولين بطلب الاستدعاء الممل، وحاولوا انتزاعي من استمتاعي، شعرت في تلك اللحظة بالرهاق والنفور من هذا الاستعجال، ومن هذا الواقع الخالي من الروح، واستغرقت وقتاً طويلاً لأضع حداً لحزني. ولو لم يسمح لي بأن ألعب لعبة الفنان البريئة دون إزعاج، لاستنجدت بتلك الفنون الأشد صرامة، والتي كرست لها سنوات كثيرة من حياتي، فبدون السحر سيصبح العالم مكاناً لا يطاق.

استدعيت إلى ذهني التركيبة الصينية، وقفت لدقيقة أكتم نَفَسي، وحررت نَفْسي من وهم الواقع، ثم رجوت الحراس بدماثة، أن يصبروا لحظات، لأني أريد أن أصعد إلى المشهد الذي رسمته لأبحث عن شيء في القطار، ضحكوا بطريقتهم المعتادة، فقد

اعتبروني مجنوناً.

ثم بدأت أصفر وأصفر، وخطوت إلى الصورة، وصعدت إلى القطار الصغير الذي سار حتى النفق المظلم، ولبرهة ظل الدخان الأسود الذي يخرج من النفق مرئياً، يخرج مندفعاً من الثقب الدائري، ثم اختفى الدخان، واختفت الصورة وأنا معها.

وظل الحراس واقفين تغمرهم حيرة كبيرة.



لك يا منازل ..

لك يا منازل ..

الانتقال إلى منزل جديد. لا يعني فقط بدء شيء جديد، ولكن أيضاً، ترك شيء قديم، وانا الآن إذ أنتقل إلى منزل جديد، أشعر بالامتنان العظيم من أعماق قلبي إلى الصديق العزيز الذي أهداني هذا البيت وبالشكر له وللأصدقاء الاعزاء الذين تضامنوا وساهموا في البناء والتأثيث، ولكن الحديث عن البيت الجديد، والثناء عليه والتغني به شيء لا أستطيعه الان، فكيف للإنسان أن ينشيء الكلمات ويغني الأغنيات لخطوة لمّا تبدأ بعد، وكيف للإنسان أن يحتفي بالنهار قبل أن يحل المساء؟ كل ما يمكن عمله في هذه المناسبة هو إنعاش الآمال في القلوب، وحث الأصدقاء أن يتمنوا من قلوبهم حياة سعيدة للمنزل وسكانه، أما الحديث عن المنزل وعلاقتي به ومشاعري نحوه، فذلك حديث لا أستطيع القيام به قبل سنة ويوم على الاقل.

ولكني وأنا أنتقل لمنزل جديد، أذكرمنازل أخرى سابقة عليه، أعطت حياتي وعملي المأوى والحماية، وأشعر بالامتنان لكل منها، ففيها ذكريات لا تحصى، وكل منها يعطي، عند استعادة الأحداث، طعماً خاصاً للفترة التي قضيتها فيه، ومثلما يفعل

الناس في لقاءاتهم العائلية القليلة، حين يتحدثون عن الماضي ويذكرون الموتى، فأنا اليوم أريد استعادة ذكرى المنازل السابقة، وصورتها في نفسي، وأحدثكم عنها .

ومع أني قد نشأت في بيوت عتيقة ذات تاريخ عريق، إلا أنني في صباي كنت أقل عناية واهتماماً كي التفت أو أحب كثيراً المنزل والغرفة التي أعيش فيها. ولم يكن ذلك نوعاً من اللامبالاة بأية حال، فما كان يهمني في مظهر الغرفة التي أسكنها هو ما أسهم به بنفسي فيها، فلم أكن مهتماً بأبعاد الغرفة، بحوائطها وأركانها، بارتفاعها أو بلون أرضيتها، ما يهمني هو ما أحضرته إلى الغرفة وعلقته على جدرانها أو وصفته فيها.

والطريقة التي يزين بها صبى في الثانية عشرة من عمره غرفته الأولى ليست لها علاقة بالذوق أو بالزخرفة أو الديكور، بل بشيء أعمق يكمن داخل ذاته، وهكذا حين امتلكت أول غرفة لي في بيت والدي الرحيب، وأنا في الثانية عشرة من عمري، لم أقم بأية محاولة لتقسيم الغرفة لأقلل من ارتفاعها الشاهق أو اتساعها، أو حتى لأجعلها أنيقة من خلال الألوان أو إعادة ترتيب الأثاث، ولم ألتفت لوضع السرير أو الدولاب أو ما شابه، ولكني اهتممت بأماكن قليلة بدت لي ليست مريحة فقط بل محراباً مقدساً، اكثرها أهمية المكتب، الذي أردته منذ فترة طويلة وملكته الآن، وأهم ما فيه ذلك الفراغ الموجود تحت غطائه المائل، حيث كنت أتحرق شوقاً لترتيب غنائمي السرية هناك، وهي أشياء لا يحتاجها المرء، ولايستطيع شراءها، ذات قيمة تذكارية، ولها بعض السحر والغموض بالنسبة لي.

من هذه الأشياء جمجمة لحيوان صغير لا أعرف كنهه، أوراق

شجر جافة؛ قدم أرنب، قطعة من زجاج سميك أخضر، أو أشياء أخرى مثلها، ترقد مختفية تحت غطاء المكتب، هذه الممتلكات والأسرار والتي لايراها أو يعرفها أحد سواي، أكثر قيمة لدي من أي شيء أخر، يليها في الأهمية ما يوجد فوق المكتب، وهذا ليس موضوعاً للسرية، ولكنه موضوع للتباهي والعرض والزينة، ولا بد أن تكون الأشياء المعروضة جميلة ومؤثرة، باقات من الزهور، قطع من الرخام، صور فوتوغرافية، وأنواع أخرى من الصور، كانت رغبتي الشديدة أن أمتلك قطعة من النحت. لا يهم نوعها، فقط ذات أبعاد ثلاثة، أي جسم أو رأس، وكانت الرغبة قوية لدرجة أنني سرقت ماركاً مرة واشتريت تمثالاً صغيراً من الطين للقيصر ويلهلم، كان إنتاجاً يباع بالجملة، ولا قيمة حقيقية له .

هذا التوق عند صبي في الثانية عشرة، ظل مصاحباً له وهو في العشرين أيضاً فمن بين أول الأشياء التي اشتريتها بالنقود التي كسبتها كصبي لبائع في مكتبة "توبنجن"، كان تمثالاً من الجص، أبيض كالثلج "لهرمس"، لاأحتمل رؤيته اليوم، ولكن في ذلك الوقت كان إحساسي به قوياً كإحساس الصبي بتمثاله الفخاري السحري البدائي، وهكذا من الصعب القول إن هناك تحسناً في الذوق بالرغم من أن تمثال هرمس أكثر نبلاً في شكله من تمثال قيصر.

ولابد من القول أيضاً، إنه من خلال السنوات الأربع التي قضيتها في توبنجن، كنت لامبالياً بالبيت أو بالغرفة التي أعيش فيها. كنت أقيم في غرفة استأجرها لي والدي حين ذهبت هناك، غرفة خالية كئيبة في الدور الأرضي لبيت قبيح في شارع بائس، ومع أنه لدي إحساس بالجمال لأشكال عديدة، إلا أني لم أعن

إطلاقاً في هذا المكان، وعلى كل حال فلا يمكن اعتبار هذه الغرفة مكاناً للسكنى بالفعل، فمنذ الصباح الباكر وحتى الليل أكون في عملي في المكتبة، وحين أعود إلى البيت يكون الظلام قد حل ولا أرغب في شيء سوى أن اكون وحيداً، أقرأ واهتم بشئوني الخاصة، ولم يكن مفهومي، في ذلك الوقت، عن الغرفة الأنيقة أن تكون جذابة، بل أن تكون مزينة، وهكذا زينتها بالكثير، مئات الصور سمرتها على الحوائط، صور لمئات الرجال أعجبت بهم لسبب أو لآخر، بعضها كبير والبعض الآخر صغير، انتزعت من مجلات وكتالوجات، وظلت أعدادها تكبر بمرور السنوات، أذكر أني دفعت، حزيناً، ثمناً مرتفعاً نوعاً ما، لصورة لجرهارت هوبتمان، وكنت قد قرأت كتابة "هانيل" آنذاك، كما أشتريت صورتين لينتشه، أحدهما صورته المشهورة بالشارب الطويل والنظرة المتجهة إلي أعلى، والأخرى نسخة لصورة زيتية يظهر فيها وهو خارج منزله على كرسي بعجلات، ونظراته غائرة حمقاء خاوية، كنت أتوقف كثيراً أمام هذه الصورة واتأملها، وكنت أعلق أكبر صورة استطعت الحصول عليها لشوبان، كما كان هناك تمثال هرمس أيضاً، وكانت هناك مجموعة من الغلايين مرصوصة في شكل متناسق علي رف معلق في وسط الحائط فوق الكتبة.

وكان لدي مكتب في هذه الغرفة أيضاً وفي فجواته السرية ترقد كنوزي السرية الغامضة، والتي ما زالت الملجأ القريب للهروب من ملل العالم الخارجي إلى مملكة السحر، لكن الآن لا يوجد فيه جماجم أو أقدام أرانب أو قطع زجاج أو حصان مفرغ من خشب الجوز، ولكن أكواماً من الورق والدفاتر عليها قصائدي ومقالاتي وأوهامي.

انتقلت في سن الثانية والعشرين من توبنجن إلى بازل، وهناك قامت بيني وبين فنون الرسم والزخرفة والتصوير علاقة حيوية جادة. فطوال إقامتي في"توبنجن" كان كل الوقت الذي أملكه مخصصاً للأمور الأدبية والثقافية، وكنت كالمخمور او الممسوس وأنا أقرأ جيته أولاً، ثم نيتشه بعد ذلك.

تفتحت عيناي في بازل وأصبحت يقظاً، ذا عين ملاحظة، عارفاً بالمعمار والرسم، والدائرة الصغيرة من الناس التي أحاطتني ورعتني وساعدتني، كانت مشبعة تماماً بتأثير أعمال "جاكوب بيرك هاروت " الذي كان قد مات منذ فترة وجيزة، والذي سيحتل في النصف الثاني من حياتي مكاناً كان مخصصاً لنيتشه .

وهكذا أثناء إقامتي في بازل، حاولت للمرة الأولى أن أعيش بطريقة فيها ذوق وجمال، فاستأجرت غرفة أنيقة جداً، هذا في أحد منازل بازل العتيقة، غرفة لها ماضٍ عريق، لكن لم يكن لي حظ هناك، كانت الغرفة رائعة لكن أبداً لم تكن دافئة برغم أن المدفأة القديمة الجميلة بها، تستهلك كميات كبيرة من الخشب، ثم أنه من الثالثة صباحاً تبدأ عربات اللبن وعربات الخضروات تقعقع على حجارة الطريق الجانبي الهادئ، تحت نافذتي مباشرة، مصدرة جلبة جهنمية تسلب النوم من عيني، فهربت مهزوماً بعد فترة قصيرة إلي غرفة جميلة في ضاحية حديثة.

وبدأت حياتي الحقيقية، إذ لم أعد أعيش في غُرف تأتي بالمصادفة، انتقل من واحدة إلى أخرى، وبدأت أقطن المنازل التي أضحت عزيزة ومهمة لشخص مثلي.

وفي السنوات من ١٩٠٤ حين تزوجت أول مرة، وحتى سنة

١٩٣١ حيث أنتقل الآن لأعيش في" كاسابورمر " عشت في أربعة منازل مختلفة، بنيت واحداً منها بنفسي، وسأحدثكم عنها جميعاً هنا.

بالطبع لم أقطن بيتاً قبيحاً بلا صفات، فقد كنت في هذا الوقت قد رأيت من الفن القديم، وزرت إيطاليا مرتين، وتغيرت حياتي وأصبحت ثرية بطرق عدة، ومرة واحدة تركت وظيفتي وقررت أن أتزوج وأعيش في الريف. وقد كان لزوجتي النصيب الأكبر في هذه القرارات، وفي اختيار المكان والبيت الذي نعيش فيه، فقد أصرت على أن تعيش في الريف حياة بسيطة صحية بأقل الضروريات، في بيت أنيق لطيف في منطقة جميلة ذات مناظر رائعة وكان البيت المثالي في نظرها هو الذي يجمع بين بيت فلاح وبيت ضيعة صغيرة ذي سقف مكسو بالطحالب تحت أشجار عتيقة واذا أمكن أن يوجد نبع متدفق عند الباب الأمامي فذلك أفضل، وباختصار بيت جميل، ليس عادياً، وله شخصيته المستقلة، وكان لي الرغبة نفسها ولا أفكر أني كنت واقعاً تحت تأثير زوجتي أيضاً. وبدأنا البحث حول مدينة بازل في القرى الجميلة المجاورة، ثم نتيجة لزيارتي الأولى" لاميل شتراوس " في بلدة " أميشوفن " دخلت بحيرة كونستانس في الاعتبار، وأخيراً بينما كنت في بيت العائلة في كالف مع أبي وأختي واثناء كتابتي لرواية «تحت العجلة» وجدت زوجتي في قرية "جاينهوفن " بيتاً ريفياً خالياً في ميدان صغير هادئ، يواجه كنيسة القرية. وافقت واستأجرنا المنزل بـ ١٥٠ ماركاً سنوياً ، وهي أجرة رخيصة في ذلك الوقت وفي هذا الموقع. وبدأنا في سبتمبر سنة ١٩٠٤ نرتب وضعنا، أصبنا في البداية بخيبة أمل نتيجة لطول انتظارنا للأثاث والأسّرة

يوماً بعد يوم، والذي شحن على ظهر سفينة من منزل بازل، لكن بدأنا نحرز تقدماً وازدادت حماستنا. فطليت الألواح الخشبية في الغرفة الكبيرة في الطابق الثاني بلون أحمر قان، وكانت هناك غرفتان في الدور الأول، وهما أكثر الغرف أناقة وجمالاً، من الخشب الصنوبر غير المدهون، ولها هيئة قديمة أثرية. فيهما مدفأة ضخمة تحتل جزءاً من الحائط فوق" مسطبة " من الآجر الأخضر القديم تسخن من نار موقد المطبخ، وقد كان هذا المكان هو المفضل لنوم قطتنا في هذا البيت. في الواقع كنا نستأجر نصف البيت، والنصف الآخر المكون من جرن ومربط خيل احتفظ به المالك لاستخدامه.

كان الدور الأرضي يتكون من المطبخ وغرفتين، استخدمنا الغرفة الكبرى كغرفة طعام ومعيشة، والصغرى التي بجوارها تخص زوجتي وفيها البيانو والمكتب، يتصل الطابقان بسلم خشبي بدائي، وفي الطابق الثاني وفوق غرفة المعيشة، تقع غرفة كبيرة بنافذتين في الركنين يستطيع المرء أن يطل منها على جزء من البحيرة والشاطئ. وكانت هذه غرفة المكتبة، تحتوي على مكتب كبير صنعته بنفسي وما زلت أحتفظ به حتى الآن -وهي قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في تلك الايام- بالإضافة إلى مكتب أعمل عليه وأنا واقف، وكانت جميع الجدران مغطاة بالكتب. وفي هذا الطابق كانت هناك غرفتان للنوم فوقهما " تملية " كبيرة ولكي تدخل المنزل يجب أن تنتبه للعارضة الخشبية أعلى الباب، فقد كانت منخفضة وقد يصطدم رأس المرء بها، وقد حدث ذلك كثيراً، فحين زارني " ستيفان زفايج " لأول مرة وكان شاباً، لم أستطع تحذيره واصطدم رأسه بها، وظل مستلقياً مدة ربع ساعة

لا يستطيع أن ينطق بكلمة حتى استرد وعيه. لم يكن هناك حديقة في هذا المنزل، فقط ممر صغير من الأعشاب وشجرتان أو ثلاث من أشجار الفاكهة، وجانب زرعته بالزهور وتعريشة عنب.

عشت في هذا البيت ثلاث سنوات، رزقت فيه بولدي الأول، وكتبت فيه عدداً من القصائد والقصص، وقد صورت مشاهد عدة من حياتنا في هذا البيت في بعض الكتب التي كتبتها، فلقد أعطاني هذا شيئاً هاماً لم يعطني إياه منزل آخر، شيء فريد وثمين، فهو أول منزل أقيم فيه وأستقل بنفسي وزوجتي وعملي من عرق جبيني، وهنا شعرت بأني سأعيش العمر كله، ولهذا السبب بالذات انتابني شعور بأني سجين حين أحاطتني المسؤوليات والالتزامات. هنا ولأول مرة اندمجت في حلم الخلق الجميل وتحقيق الذات في مكان اخترته بنفسي، وإن اتخذ شكل الوسيلة البدائية الصغيرة، مسمار بعد مسمار دققته في هذه الحوائط وفي عتبة الباب، مسامير لم أشترها ولكن انتزعتها من الصناديق التي نقلنا بها أمتعتنا، ملأت الشقوق والفجوات بمشاقة الورق والحبال القديمة وطليتها باللون الاحمر، وكافحت من أجل نمو الزهور القليلة في التربة السيئة جوار المنزل ترتيب هذا المنزل وتنسيقه تم بشجن الشباب الجميل والإحساس بالمسؤولية الشخصية مع الاعتقاد بأننا سنبقى فيه العمر كله. حاولنا في هذا البيت الريفي الصغير أن نعيش حياة طبيعية بسيطة بريئة، بعيدة عن حياة المدن أو أي نموذج لحياة أخرى، وقد استقينا أفكارنا ومثلنا في هذه الحياة من " راسكين " و" موريس " و "تولستوي" ولقد نجحنا في أشياء وفشلنا في أخرى لكن كلينا كان مخلصاً تماماً وكل شيء فعلناه قمنا به بأمانة وإخلاص.

وحين أتذكر هذا البيت، ترتسم في ذاكرتي صورتان واضحتان، أولها صباح يوم صيف مشمس، يوم عيد ميلادي الثامن والعشرين، استيقظت فزعاً وخائفاً تقريباً على أصوات غير عادية، جريت إلى النافذة ونظرت فرأيت فرقة موسيقية ريفية تعزف على آلات النفخ، جمعها صديقي" لودفيج فنخ " من قريتين مجاورتين احتفالاً بعيد ميلادي، وكانت آلاتهم تلمع في ضوء الشمس وهم يعزفون التراتيل والمارشات المختلفة. والصورة الثانية مرتبطة أيضاً بصديقي "لودفيج "، وفي هذه المرة استيقظت في منتصف الليل على صوت صديقي " بوخرر " يخبرني بأن البيت الصغير الذي اشتراه" لودفيج " منذ فترة وجيزة، وأثثه لزوجته الصغيرة، تشتعل فيه النيران. مضينا عبر القرية بصمت، وكانت السماء هناك بلون الدم والبيت الصغير السحري الجذاب، الذي وسعه «لودفيج» وطلاه وجدده وأثثه يحترق لآخر خشبة فيه، وصاحبه في شهر العسل وسيعود في اليوم التالي مع عروسه إلى المنزل، تركنا كومة الأنقاض، والدخان المتصاعد ومضينا لنقابله ونبلغه الأخبار السيئة .

وشيئاً فشيئاً وبدون أسف قلنا وداعاً لبيتنا الريفي، فقد قررنا أن نبني لأنفسنا منزلاً نملكه، وقد تداخلت اعتبارات عدة في اتخاذ هذا القرار.

في المقام الأول كانت الظروف الخارجية مشجعة، فبسبب طريقة حياتنا البسيطة المقتصدة الرخيصة توفرت النقود سنة بعد سنة، ثم إننا نتوق منذ فترة طويلة إلى حديقة بمعنى الكلمة، وإلي مكان واسع رحب يطل على منظر أكثر اتساعاً. كما كانت زوجتي مريضة جداً، وكان هناك طفل، ووسائل الراحة مثل السخان

والبانيو لم تعد غير ضرورية كما كانت قبل ثلاث سنوات، وهكذا فكرنا وقلنا إذا كان على أولادنا أن ينشأوا في الريف، فمن الأفضل أن ينشأوا على أرضهم، في بيتهم الخاص، وفي ظلال أشجار يملكونها، ولا أعرف كيف بررنا هذه الفكرة لأنفسنا، كل ما أذكره أننا كنا جادين بالفعل في هذه الفكرة. بالطبع لا شيء يكمن وراءها إلا شعور الطبقة الوسطى بالتملك، برغم أن هذا لم يكن قوياً داخل نفوسنا، لكني أعترف أن السنوات الخصبة المربحة لنجاحنا الأول قد أفسدتنا أو أن الأمر اقتداء بالمثل الفلاحي؟ لم أشعر بداخلي آنذاك بالرغبة بالاقتداء بالفلاحين، ربما تأثرت " بتولستوي " وجيرمياس جو تلف "، وساعد علي ذلك حركة ألمانية جميلة للهروب من المدينة والعودة إلي الريف، حركة تقوم على أسس فنية وأخلاقية، وكان ذلك حباً في أذهاننا بالضبط كما عبرت عنه في روايتي : " بيتر كامينز ند "، وعلى كل حال فإني أعتقد أني على العكس تماماً من الفلاح المرتبط بأرضه وأقرب إلى البدوي الرحال الصياد ذئب وحيد لا يستقر في مكان.

لم يكن خطأ حياتي في " جانهوفن" أني استمتعت وعشت بأفكار زائفة عن الفلاحين ولكن في جزء كبير منها أني ناضلت وعملت بوعي من أجل اشياء تختلف تماماً عما تتطلبه طبيعتي الحقيقية، ولا أستطيع القول لأية درجة سمحت لنفسي أن تنقاد في هذه المسألة بأفكار ورغبات زوجتي. لكن تأثيرها عليّ في هذه السنوات المبكرة، وأنا أراه الآن حين أستعيد ذكرى تلك الايام، كان أقوى من المفروض أن أسمح به.

باختصار، قررنا أن نشتري أرضاً ونبني عليها بيتاً. ساعدنا

ديق مهندس من بازل، وقدم لنا أهل زوجتي معظم تكاليف
ناء كقرض. كانت الأرض رخيصة، وهكذا في سنتنا الرابعة
ترينا قطعة أرض على بحيرة "كونستانس " وبنينا بيتاً جميلاً
كن للمرء أن يرى منه الشاطئ السويسري، وقمة كاتدرائية
ونستانس، وخلفها الجبال البعيدة، كان البيت أكبر وأكثر راحة
ن البيت الذي تركناه، كانت فيه غرف للأطفال وللخدم وللضيوف،
أماكن الدواليب والأدراج مبنية في الحوائط، وكان في البيت ماء
ار ولم نعد نحضر المياه من العيون، كما كان فيه قبو للنبيذ،
قبو للخزين، وغرفة مظلمة لتحميض الأفلام التي تصورها
وجتي، وأمور أخرى مريحة. قابلنا بعض المتاعب في البداية،
كانت البالوعة تسد بأستمرار وتطفح المياه القذرة في حوض المطبخ
تهدد بالتسرب إلى البيت، بينما أنا والسباك نستلقي على
طوننا أمام البيت ندس العصي والأسلاك في أنابيب الصرف، على
كل حال، انتهي الأمر وأصلحناها تماماً، وإذا كنا قد عشنا حياتنا،
بساطة، كما فعلنا من قبل إلا أن هناك بعض الرفاهية الصغيرة
لتي لم أكن أسمح لنفسي بأن تحلم بها. وفي الغرفة التي كنت
أعمل بها كانت المكتبة مجهزة داخل الحائط، وكان لدي مكتب
بطوى، والجدران تزينها اللوحات، فلنا الآن العديد من الاصدقاء
الفنانين، اشترينا بعض اللوحات وتلقينا بعض الهدايا، وبدل
صديقنا الرسام " ماكس بخرر " الذي تركناه، يعيش بجوارنا الآن
رساما من ميونخ "بلومر " "ورايتر " يحضران في الصيف، وقد
أحببتهما وما زالا من بين أعز الاصدقاء. فكرت في نظام خاص
جميل ومريح للتدفئة في مكتبي، فأقمت مدفأة ضخمة بالآجر
الأخضر، يستخدم فيها الفحم للاحتراق البطيء. لقد شقيت في

بنائها بل واعدت إلي المصنع عربة محملة بالآجر، لأنها لم تكن بالمواصفات التي في ذهني وطلبتها من اللون الأخضر الجميل، لكن هذه المدفأة أظهرت لي الجانب الآخر لكل أنواع الراحة والتطورات العلمية .

كان الفرن يدفئ جيداً، لكنه حين يكون الجو عاصفاً فهو يولد غازاً لا يستطيع طرده، وآنذاك ينفجر في ضجة ما زلت أسمعها إلى اليوم، وتمتلئ الغرفة فجأة بغاز الفحم والدخان والسناج، وعلى المرء أن يخرج الفحم بسرعة ويطفئه، ويسرع مدة ساعتين لاحضار الخزاف، وبالتالي تتعطل التدفئة عدة أيام ولا أستفيد من المكتبة، حدث هذا ثلاث أو أربع مرات، في مرتين منها غادرت البيت بعد الحادث مباشرة، إذ ما إن يقع الانفجار اللعين، وتمتلئ الغرفة بالدخان، حتى أحزم حقيبة السفر، وأستدعي الخزاف، وأسافر إلي" ميونخ " حيث أشترك في تحرير مجلة هناك، ومع ذلك فإن سوء تصرفي هذا كان استثنائياً .

كانت الحديقة هي الأكثر أهمية عندي في هذا البيت، لم يسبق أن كانت لي حديقة. ومن المبادئ التي كنت أحملها عن الريف أن المرء يجب أن يزرع حديقته ويعتني بها بنفسه، وقد قمت بهذا العمل عدة سنين يساعدني صبي فلاح ينصحني، حددت الممرات والأحواض، زرعت الشجر، الكستناء والزيزفون، والكاتابلا، وصفاً من شجر الزان، وكمية من شجيرات التوت والفواكه الأخرى، شجيرات الفاكهة قضمتها الأرانب والغزلان وتلفت خلال الشتاء، أما باقي الأشجار فقد نمت بجمال، وفي الوقت نفسه كان لدينا فراولة، وتوت بري، وقرنبيط، وبسلة، خس بكميات وافرة، كما جهزت حوضاً لزهرة الدهلية، وزرعت علي جانبي ممر طويل بضع

مئات من أشجارعباد الشمس، ذات الحجم المتميز، وكان ينمو تحتها الآلاف من نبات «قرة العين» المعمر بكل ظلال ألوانه من الأحمر والأصفر.

قمت لمدة عشر سنوات - في جاينهوفن وبرن - بمفردي وبيدي بزراعة خضرواتنا وزهورنا، أسمد الأرض وأسقي الأحواض وأحافظ على الممرات من الأعشاب الضارة، أقطع وأنشر كل ما نحتاجه من خشب الوقود، كان شيئاً جميلاً ومفيداً لكنه أصبح في النهاية عبودية قاسية . جميل أن تلعب دور الفلاح ما دام الامر لعبة، لكن إذا تحول إلى واجب ضاع الاستمتاع الذي تجنيه منه .

إن تذكري اليوم هذا البيت الثاني يبين كيف تعيد نفوسنا تركيب صورة ما يحيط بنا، سواء بتزييفها أو بتصحيحها، وكيف تتأثر صور الذاكرة بحياتنا الداخلية، فحتي اليوم تتراءى أمام عيني صورة دقيقة للحديقة بكل ما فيها، كما أرى بوضوح مكتبتي بكل تفاصيلها وأستطيع أن أسمي مكان كل كتاب فيها، لكن بقية البيت، لا تحتفظ ذاكرتي منه إلا بصورة ضبابية غائمة .

تكيفنا تماماً مع الحياة وشعرنا بالاستقرار، وأقمت مقعداً خشبياً طويلاً تحت شجرة الكمثرى الوحيدة العالية في المكان والتي تقف مطمئنة أمام الباب الخارجي، رتبت الحديقة وزرعتها وأصبحت نضرة جميلة، وأبني الكبير يتبعني بخطواته الطفولية في كل خطواتي السابقة . لكن البيت الذي بنيناه لنقضي فيه عمرنا، لم نستمر فيه طويلاً. لقد مللت البلدة- جاينهوفن - لم يعد لي حياة هناك. قمت بالعديد من الرحلات القصيرة، كان العالم خارج القرية

رحباً، علماء النفس أصحاب العقول المهووسة يسمون شيئاً كه
هروباً، قد يكون هروباً عند البعض، لكن بالنسبة لي كان محاو
لمعرفة العالم واكتساب نظرة ومنظور أوسع. في صيف ۱۱۹
ذهبت بعيداً إلى الهند وعدت في آخر العام، لكن ذلك لم يك
كافياً لإزالة الملل، وفي الوقت نفسة أضيف إلى السخط الداخ
الذي لا نعبر عنه، سخط خارجي أيضاً ، المشاكل البسيطة الت
تثير النقاش بين الرجل وزوجته، أنجبنا ابننا الثاني والثالث وأص
الأكبر في سن المدرسة، وزوجتي كانت تشعر بالحنين إلى سويس
بلدها، وأيضاً تتوق إلى الحياة قرب المدينة، للأصدقاء والموسيق
وبالتدريج بدأنا ننظر إلى حياتنا في "جاينهوفن " أنها فت
استراحة، وعرضنا المنزل للبيع.

ووصل الأمر إلى نهايته سنه ۱۹۱۲ حين وجدنا مشتر
للمنزل.

قررنا الانتقال إلي "برن "، ولم نكن نريد بالطبع الحياة ف
المدينة نفسها، فذلك سيكون خيانة للحياة المثالية التي نؤمن به
ولكن كنا نريد بيتاً ريفياً هادئاً في ضواحي " برن" وكنا قد أحب
المنطقة القديمة الجميلة التي كان يعيش فيها زميلنا الرسام " ألبر
ويلتي" لقد زرتة مرات عديدة وأعجبت بمنزله في ضواحي المدينة
بشكله الريفي الأشعث قليلاً، ولقد أثر على قراري بالبحث ع
منزل هناك وجود هذا الصديق ثم حب زوجتي لجمال «برن
وضواحيها بسبب ذكريات شبابها هناك .

ولكني حين عزمنا بالفعل علي الانتقال إلى هناك، حد
أمر قلب كل شيء تماماً، فقد مات صديقي «ولتي» وزوجته ف

فترة متقاربة، ذهبت إلي جنازته، واتضح الموقف بأنه إذا أردنا الانتقال إلي «برن» فأفضل ما نفعله هو أن نسكن بيت «ولتي»، رفضنا داخلياً هذا الميراث الذي تُشم منه رائحة الموت، وبحثنا عن مكان آخر في الجوار، ولكن لم نجد شيئاً يناسبنا، كان بيت «ولتي» ملكاً لعائلة أرستقراطية، واستطعنا أن نحصل على عقد إيجار له مع بعض الأثاث والكلب الذئبي الخاص «بولتي».

كان البيت يحقق حلمنا القديم من كل ناحية، كان بيتاً ريفياً على طراز بيوت «برن» بأقواسه المستديرة ذات الطابع الخاص، نصف ريفي، ونصف أرستقراطي، ونصف أنيق، يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر، تحيطه أشجار مهيبة تظللها تماماً شجرة دردار عملاقة، وهو مملوء بالزوايا والأركان والصدوع السحرية، بعضها جميل وبعضها غريب ومفزع، وكان ملحقاً به أرض زراعية مؤجرة لفلاح يسكن فيها، كنا نحصل منه على الحليب للمطبخ والسماد للحديقة. وكانت الحديقة في الجزء الجنوبي من المنزل ننحدر إليها عبر ممرين متناسقين ببعض الدرجات، وفيها عدد من أشجار الفاكهة، على بعد حوالي مائتي خطوة من البيت، هناك ما يسمي بالأيكة، بستان صغير يضم بضع عشرات من الأشجار القديمة، ويقع البستان على تلة صغيرة تشرف على المنطقة المجاورة .

وفي فناء البيت الخلفي نافورة حجرية أنيقة ينبثق منها الماء، وكانت الشرفة الكبيرة الجنوبية مُعرّشة بدالية ضخمة، ومن هناك يمكن للمرء أن يشرف على المنطقة المجاورة بتلالها المغطاة بأشجار الغابات حتى سلسلة الجبال البعيدة. وقد وصفت البيت والحديقة بدقة في روايتي غير الكاملة " بيت الأحلام " وعنوان هذه الرواية

كان ذكرى صديقي "ولتي" الذي أعطى هذا الاسم لإحدى أهم لوحاته، وفي داخل المنزل كانت هناك أشياء كثيرة طريفة تعلق بالذهن: أفران جميلة من الآجر الجميل، أثاث وواجهات جميلة، ساعات حائط فرنسية أنيقة بأجراسها وبنادلها، مرايا بطول المرء ذات زجاج أخضر يبدو فيها الواحد كأنه صورة لأحد الأسلاف، مدفأة رخامية أشعلها كل مساء في الخريف.

باختصار، لم نتخيل شيئاً يمكن أن نملكه أفضل من هذا، ومع ذلك كان هذا البيت منذ البداية غامضاً وغير باعث على السعادة، فوفاة «ولتي» وزوجته كان بمثابة الفأل السيئ. أعجبنا في البداية بمزايا المنزل، المنظر المدهش الذي يطل عليه غروب الشمس، الفاكهة الجيدة، مدينة «برن» القريبة حيث يمكننا الذهاب للاستماع إلى الموسيقى ولقاء الأصدقاء ، لكن كان هناك شيء غامض لم نستطع إدراكه، ولم يحدث إلا بعد سنوات أن اعترفت لي زوجتي أنها منذ البداية كان يتملكها غالباً إحساس بالخوف و ضيق الصدر، شيء كالرعب المصاحب لموت فجائي أو رؤية أشباح، كذلك في هذا المكان نما ببطء الضغط الذي غير حياتي بل و دمرها جزئياً.

فبعد سنتين من انتقالنا لهذا البيت جاءت الحرب العالمية، وجاء الدمار لحريتي واستقلالي، والمأساة الأخلاقية الكبرى التي سببتها الحرب وأجبرتني أن أبحث عن أسس جديدة لتفكيري، وعملي ووقتها مرض ولدي الأصغر مرضاً خطيراً طال علاجه، وبدأ الإحساس بمبادئ مرض زوجتي العصبي، وأنا مرهق جداً بالعمل بواجباتي الرسمية بسبب الحرب، وأصبحت أكثر يأساً، وبدأت كل أسباب سعادتي تنهار، في الفترة الأخيرة من الحرب، جلسنا في المنزل دون إنارة كهربية وحتى دون كيروسين في أغلب الأوقات،

وبدأت نقودنا تنفذ تدريجياً، وبعد أوقات عصيبة طويلة انفجر مرض زوجتي، وأدخلتها مصحة مكثت فيها فترة طويلة، وكان من الصعب أن أحافظ على الاهتمام بالبيت الكبير المهمل. فأرسلت ومكثت لأشهر طويلة وحدي في البيت المهجور مع خادمة أمينة ولو سمحت ظروف الحرب لرحلت منذ فترة.

وأخيراً حين جاء ربيع ١٩١٩ وانتهى عملي المتعلق بالحرب، وأصبحت حراً ثانية. غادرت البيت الذي لازمته سبع سنوات تقريباً، غير آسف علي مغادرة «برن» .

لقد اتضح لي، سلوكياً ومعنوياً، أن مغزى وجودي الوحيد هو التفرغ لعملي الأدبي فقط وأن أعيش لأجله، ، دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى، حتى ولا المتاعب المالية، وإذا لم أنجح في ذلك فإنني هالك ولا محالة . سافرت إلى " لوجانو "، وقضيت عدة أسابيع في سورينو، وبحثت ووجدت سكناً في " مونتالونا - الكازاكاموزي "، وانتقلت إلى هناك في مايو ١٩١٩. أرسلوا لي مكتبي وكتبي فقط من " برن "، أما الأثاث فقد استأجرته. وعشت في هذا البيت الأخير مدة اثنتي عشرة سنة، السنوات الأربع الأولى منها بصفة دائمة، وبعد ذلك في الفصول الدافئة فقط.

هذا البيت الجميل والغريب أيضاً، والذي أغادره الآن، كان يعني الكثير بالنسبة لي، كان من عدة نواح أكثر البيوت التي سكنتها أصالة وجمالاً، بالطبع لم أكن أملكه ولا سكنت فيه كله، بل استأجرت شقة صغيرة فيه مكونة من أربع غرف، فلم أعد سيد ضيعة ولا أباً لعائلة له منزل وأطفال وخدم وكلب يداعبه وحديقة يزرعها، بل كنت آنذاك رجلاً صغيراً مفلساً يعمل بالأدب مهلهل

الثياب، غريباً يبعث إلى الشك، ويعيش على الحليب والأر
والمكرونة، يرتدي ملابسه القديمة حتى تبلى، ويلتقط عشاءه ف
الخريف من حبات الكستناء (أبو فروه) في الغابة. ولك
التجربة نجحت، وبرغم كل الصعوبات في هذه السنوات فقد كان
أوقاتاً جميلة ومثمرة، كانت كمن يستيقظ من كابوس استمر ع
سنوات، استنشقت الحرية والهواء النقي والشمس، ملكت الوح
وعملي.

في الصيف الاول من هذه الفترة، كتبت في تتابع سريع
" كلاين وفاجنر " و" الصيف الأخير "، وزال توتري الداخلي ح
أنهيتهما بشكل رضيت عنه، واستطعت في الشتاء التالي أن أبد
في كتابة " سيدهرتا ". وهكذا جمعت شتات نفسي، فما زل
أستطيع العمل والتركيز، ولم تستطع سنوات الحرب، كما كنت
أخاف، أن تدمرني ثقافياً وأدبياً، وأعترف صادقاً أنه لولا وقو
عدد من الأصدقاء بجانبي، باستمرار وإخلاص، لم أكن لأعيش
هذه السنوات، وأنه بدون مساعدة صديقي في "ونترثور" وصديق
العزيز من " سيام " لم أكن أنجح في تخطي العقبات، كما أن ،
صنعه معي" كونو أمييه "، باعتنائه بابني " برونو "، يعبر ع
أعلى درجات الصداقة .وهكذا عشت في " كازاكاموزي " فتر
الاثني عشر عاماً الماضية، وقد وصفت هذا البيت وحديقته ف
روايتي " الصيف الأخير" وفي روايات أخرى. وقد رسمت ه
البيت بزواياه المختلفة واشكاله الغريبة كثيراً، خاصة في الصيف
الأخيرين وأنا على وشك وداعه، قمت بالرسم من الشرفة والنواف
والممرات المناظر التي يطل عليها، وأركان وحوائط حديقته الجميا
المدهشة، فهنا القصر، الذي هو تقليد لمساكن الصيد الباروكية

ظهر للوجود نتيجة نزوة مهندس منذ خمس وسبعين سنة، وبرغم أنه يضم عدداً آخر من السكان إلا أن أحداً لم يمكث فيه قدر ما مكثت، ولم يحبه أحداً كما أحببته. فقد اتخذته واخترته سكناً ووطناً - واضحك على ذلك إذا شئت- هو نتاج ذوق مرفه غير عادي، تغلب صانعه علي وعورة الأرض التي بُني فوقها، وأعطاه ميزات عديدة متنوعة، برغم شكله المثير للضحك نوعاً ما، وحالته شبه البائسة الآن.

يفتح باب المنزل بشكل مسرحي ضخم، فتجد سلماً ملكياً يقود إلى حديقة سفلية ذات ممرات وسلالم كثيرة، حديقة تتكون من منحدرات عديدة تحدها الأسوار الواقية التي تستمر في دورانها حتى تذوب في واد ضيق تنمو فيه عينات رائعة من كل الأشجار التي تنمو في الجنوب، تجدها متشابكة معاً تظللها أشجار الكرمة والياسمين. لا تستطيع أن ترى البيت من القرية المرتفعة، فالأشجار تخفيه تماماً ، أما من الوادي فيبدو البيت الذي يطل على سلسلة التلال الغابية الهادئة، بسلالمه اللولبية وأبراجه القليلة كقلعة ريفية خارجة من إحدى روايات " ايشندورف ".

تغير الكثير في هذا البيت وحديقته في الاثني عشر عاماً الماضية، فشجرة الزنزريق القديمة العملاقة في مدخل الحديقة، وهي أكبر شجرة رأيتها في حياتي، والتي تزهر بغزارة سنة بعد سنة، وتبدو غريبة الشكل في الخريف والشتاء بالقرون البنفسجية الحمراء التي تحملها، وقعت فريسة لعاصفة خريفية. وشجرة الماجنوليا والتي وصفتها في رواية " الصيف الأخير " والتي تشبه الشبح، والتي كانت تطل علي شرفتي الصغيرة وتكاد زهورها البيضاء العملاقة تنمو داخل غرفتي، قُطعت في وقت كنت فيه في

الخارج . وذات ربيع عدت من زيورخ بعد فترة غياب طويلة، فلم أجد الباب الامامي القديم لشقتي، لقد اختفي كلية وبُني مكانه حائط، ووقفت أمامه حائراً لا أجد مدخلاً للشقة كما لو أنني في حلم، لقد قاموا ببعض الإصلاحات دون أن يخبروني. لكن لا شيء، من هذه التغيرات استطاع أن يغير من عاطفتي نحو البيت، إنه ملكي أكثر من أي ساكن آخر، فأنا هنا لم أكن الرجل المتزوج، الأب ورب العائلة، وكنت وحيداً في وطني الصغير، هنا ناضلت شاقاً عبر السنوات الصعبة القاسية بعد الضياع الكبير في وضع بدا في أغلب الأحيان ميئوساً منه تماماً، هنا ولعدة سنوات استمتعت بالعزلة الكاملة وقاسيت منها أيضا . كتبت قصائد كثيرة هنا ورسمت لوحات عديدة، أتأسى بفقاعات الصابون، وأصبحت أكثر التصاقاً بهذا المكان من أي مكان أخر أقمت فيه.

وامتناناً لهذا البيت رسمته كثيراً، واحتفيت به بعدة طرق، مكافأة له لقيمته عندي ولما منحني إياه.

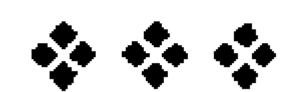
ولو بقيت وحدي، ولو لم أجد رفيقة عمري، لما تركته أبداً، برغم أنه من عده نواح كان غير مريح لرجل عجوز لم يعد بصحة جيدة. كنت وأنا أعيش فيه، متحملاً البرد الشديد وجميع أصناف البلايا، تراودني بين حين وآخر فكرة لا أعيرها التفاتاً جدياً، فكرة أن أنتقل من هذا البيت، أشتري أو أستأجر منزلاً آخر، وحتى أن أبني واحداً أجد فيه مأوى أكثر راحة وصحة لسني العجوز، لكنها كانت أمنيات وأفكاراً لا أكثر.

ثم أضحت هذه القصة الخرافية حقيقية واقعة، ففي مساء يوم ربيعي ١٩٣٠ وبينما نحن جلوس في " الارك" في زيورخ، نثرثر، جرنا الحديث إلى المنازل والبناء، فذكرت أمنيتي في المنزل الذي

أريده، وإذا بصديقي " ب" يضحك بصوت عال ويصيح - ستملك هذا البيت.

بدا لي الأمر كالنكتة، طُرفة سببتها الخمر ذلك المساء، ولكن الطرفة أصبحت حقيقة والبيت الذي كنت أحلم به مازحاً في ذلك الوقت أضحى حقيقة، بيت كبير جميل تحت أمري طوال حياتي، مرة ثانية أستقر في منزل أقضي فيه العمر كله. وهذه المرة أعتقد أنه سيكون بالفعل للعمر كله.

سيأتي الوقت لكتابة قصة هذا البيت، فالأمر لم يبدأ، على كل حال إلا منذ وقت قليل، أما الآن فسنقوم بعمل آخر. سنرفع الكؤوس في صحة أصدقائنا الكرماء الطيبين، وننظر في أعينهم شاكرين، ونشرب نخبهم ونخب البيت الجديد.



ذكريات من منتجع بادن

ذكريات من منتجع بادن

ما أن وصل القطار إلى بادن، وهبطت درجات العربة ببعض الصعوبة ، حتى كانت روح المدينة تتلبسني، وبينما أقف على رصيف المحطة الإسمنتي المبلل أتطلع بحثاً عن حمال الفندق، رأيت نازلاً من القطار نفسه، ثلاثة أو أربع زملاء، من المصابين بآلام المفاصل، يتضح ذلك بسهولة من طريقة شد الأرداف إلى بعضها بشكل عصبي، ومن الخطوة غير الثابتة شبه العاجزة، والتعبيرات الحزينة على اللوحة التي تصاحب خطواتهم الحذرة. كان لكل منهم تفرده الخاص وآلامه الخاصة وبالتالي طريقته الخاصة في المشي، مترنحاً أوعارجاً، وتعبير خاص يرتسم على وجه كل منهم، لكن الشيء الذي يجمع بينهم ويسيطر عليهم، هو أنهم جميعاً مصابون بعرق النسا وآلام المفاصل، فهم بذلك إخوة وزملاء، وأي أنسان له خبرة بالجهاز العصبي، خبرة شخصية يسميها الاطباء الاحساس الذاتي، وليست خبرة مستمدة من الكتب، يستطيع أن يفهم حالتهم على الفور. وقفت أراقب هذه الشخصيات المتميزة، جميعهم يرتسم على وجوههم تعبير يجعلهم أكثر قبحاً مني، يستندون بثقل كبير على عصيهم، ويحركون أياديهم بارتعاشات

أكبر، ويخطون علي الأرض بتردد اكثر مني، كلهم كانوا أكثر مني مرضاً، وأتعس حالاً وأكثر مدعاة للشفقة وهذا أعطاني إحساساً بالراحة ظل يلازمني طوال إقامتي في بادن، ويتجدد بين حي وآخر: فكل من حولي إما يعرجون وإما يزحفون، أو يسيرون على كراسٍ بعجلات، كلهم أكثر مرضاً مني، وكلهم لديهم من الأسباب للشعور بالأمل والسعادة، أقل مني بكثير. وهنا اكتشفت بفرحة حقيقية أحد أهم أسرار وسحر كل من يقيمون في منطقة العيون المعدنية في بادن: زمالة المعاناة.

غادرت المحطة، وسرت بثقة ومرح في شارع ينحدرهابطا تجاه الحمامات، أرى في كل مكان مرضى يزحفون، أو يجلسون متعبين أحياناً جلسة معوجة بسبب المرض، على مقاعد طويلة خضراء، أو يسيرون وهم يعرجون في جماعات تثرثر، امرأة تجلس علي كرسي متحرك، تبتسم بإرهاق، وتحمل بيدها زهرة نصف ذابلة، والممرضة التي تدفع الكرسي تكاد تنفجر صحة ونشاطاً، رجل عجوز يخرج من متجر يشتري منه المرضي البطاقات المصورة ومنافض السجائر وثقالات الورق (يشترون منها أعداداً كبيرة لا أعرف لماذا؟)، هذا الرجل العجوز احتاج إلى دقيقة كاملة ليهبط سلمة، وكان ينظر إلي الشارع أمامه نظرة متعبة بائسة، كرجل أمامه مهمه صعبة عليه أن يقوم بها، شاب يرتدي قبعة خضراء من قبعات الجيش، على رأسه المنتصب، يشق طريقه بقوة وحيوية بمساعدة عصوين، هذه العصي اللعينة الخاصة بالمرضى تقابلها في كل مكان تنتهي كل منها بحلقة مطاطية عريضة تلتصق بالطريق كالعلقة، ولعلمك فاني أحمل عصاً أيضاً، لكنها عصاً جميلة من

الخيرزان، أستعين بها أحياناً لكن عند الضرورة أستغني عنها، ولم يرني أحد أسير بعصا لها مثل تلك الحلقات المطاطية اللعينة. لا من الواضح أن أي فرد يراني سيُدهش من الطريقة الرشيقة التي أخطو بها في هذا الشارع الجميل، ولا يظن بي المرض، بالطريقة التي أستخدم بها العصا وكأني ألعب، وأحياناً لا أستخدم هذه العصا المزينة الجميلة. كما أن العلامات التي تشير إلى التهاب المفاصل الخفيف والانكماش العصبي للفخذ، لا يمكن ملاحظتها إلا بالتدقيق، عموماً كانت مشيتي معتدلة وصحيحة وأنا أسير في هذا الشارع بصحة وحيوية بالمقارنة بكل هؤلاء الأكبر سناً والأتعس حظاً والأكثر مرضاً من الإخوة والاخوات ذوي الأمراض الواضحة المعروضة بطريقة تبعث على الشفقة.

تنفست بسعادة ورضا، وفي كل خطوة يتأكد لي أني في صحة جيدة أو على وجه التحديد أقل مرضاً من كل هؤلاء المساكين، واذا كان كل هؤلاء الكسيحين تقريباً يأملون بالشفاء، وإذا استطاعت حمامات " بادن " أن تساعد هؤلاء المرضى بعصيهم ذات الحلقات المطاطية، فإن مشكلتي البسيطة ستتلاشى هنا كالثلج أمام ريح جنوبية، وسيجدني الطبيب ظاهرة تستحق المكافأة ومعجزة صغيرة في الشفاء .

نظرت بعطف ومحبة إلى هؤلاء الاشخاص من الباعثين على النشاط، أرى سيدة عجوزاً تتدحرج ككتلة، خارجة من محل لبيع الحلوى، يبدو واضحاً أنها تخلت منذ فترة طويلة عن محاولة إخفاء عجزها، وتحرك عضلاتها بالشكل الذي تستريح له، فهي تصارع وتتوازن وتسبح كأسد البحر يعبر الشارع ولكن بطريقة أبطأ.

رف لها قلبي وهتفت لها مشجعاً، وشكرت أسد البحر و«بادن»

وحالتي المحظوظة، وحمدت الله أني جئت هنا في الوقت المناسب، والمرض في مرحلته الاولى، استدرت مستنداً على عصاي أتابع بنظري أسد البحر لبرهة وشعور بالرضا ينتابني، والذي يثبت أن اللغة ليست مهيأة بعد للتعبير عن العمليات النفسية المركبة، فعلم اللغة يتناقض عند التعبير عن الخبث والتعاطف المتحدين هنا بشكل عميق تماماً، يا الهي، ياأيتها المرأة المسكينة، من الممكن للمرء أن يصل بالفعل إلى هذه الدرجة المزعجة من المرض .

والغريب أنه في هذه اللحظة من ارتفاع معنويات المرء، ونشوة السعادة، لم يسكت ذلك الصوت المزعج داخلي، الصوت الذي أعارض سماعه والذي أحتاجه كثيراً، صوت العقل. إنه يذكرني بنعومة وأسى وبلهجته الباردة الكئيبة، بأن مصدر راحتي وسعادتي ما هو إلا غلطة، تفكير خاطئ، فأنا الرجل الأديب الذي يعرج ويحمل عصاة من الخيرزان أقارن نفسي بكل أعرج وكسيح، إنسان يتلوى من المرض، متجاهلاً سلسلة كاملة من الأعراض تمتد في اتجاه معاكس لحالتي، أولئك الأشخاص الأصغر والأكثر صحة ونشاطاً وقوة واستقامة بنية مني، أو بالأحرى لاحظتهم لكني رفضت أن أعقد مقارنة بيني وبينهم، بل واعتقدت في اليومين الأولين أن كل من يتمتع بالصحة هنا ليس من زملاء المرض وأنه بالقطع من الأشخاص الأصحاء العاديين الذين يقيمون بالمدينة. وتجاهلت أن هناك من بين المصابين بالتهاب المفاصل مَن يقدر على السير دون عصا، ودون تحركات متشنجة، وأن أعراضهم المرضية لا يمكن للطبيب النفسي أن يميزها وهم يسيرون في الشارع، وأنا بعرجي الخفيف وعصاي الخيرزان وأعاني من المرحلة الأولية غير الضارة من مرض الأيض، قد يحسدني الأعرج الحقيقي، لكن

الكثيرين قد ينظرون إلي بتعاطف ساخر، وأبدو في نظرهم كأسد البحر، وعلي العموم فأنا بنظراتي الدقيقة الملاحظة لدرجات المعاناة والمرض لم أكن أقوم ببحث موضعي، ولكن بعملية خداع للنفس باعثة على التفاؤل، وقد وصلني هذا الإدراك لهذه الحقيقة بالطريقة العادية البطيئة وبعد عدة أيام من إقامتي.

علي كل حال، استمتعت بسعادة اليوم الأول حتى الثمالة، وانغمست في هذا اللهو الساذج من إيهام النفس، وأفادني ذلك.

سرت في الشارع منجذباً بالمرضى من زملائي الطيبين في المنتجع، الذين يتمايلون في كل مكان، تطربني رؤية كل كسيح، وينتابني تعاطف مرح ورضا عن النفس كلما رأيت كرسياً بعجلات، هذا الشارع الممدود بشكل مريح وينحدر بخفة واتساق إلي منطقة الحمامات العتيقة، يُدفع إليه المرضى الذين يصلون الى المحطة ويقادون في تموج مريح، حيث تضيع هذه الموجات مثل نهر يغرق في الرمل عند مداخل فنادق الحمامات في نهايته. اقتربت من فندق «هلنجوف» حيث قررت أن أقيم، تملأني الثقة وتغمرني الآمال السعيدة، كانت الخطة ببساطة أن أتحمل الإقامة هنا ثلاثة أسابيع أو أربعة، أستحم يومياً في الحمامات المعدنية، أمشي بقدر ما أستطيع، أبعد عن نفسي الانفعال والتعلق قدر الإمكان. سيكون هناك أحياناً إحساس بالرتابة والملل ولحظات ضجر فإن حياة القطيع، وحياة الفنادق ثقيلة الظل بدرجة كبيرة وقاسية جداً، ستكون هناك بعض المضايقات على المرء أن يتقبلها، وبعض النفور على المرء أن يتغلب عليه، ولكن بلا شك فهذه الحياة غير المألوفة لي ستزودني بتجارب ممتعة ومهمة أيضاً، برغم صفتها البرجوازية

وطعمها الذي لا نكهة له، لكن بعد سنوات من حياة هادئة وحشية منعزلة في الريف، ووحدة كرستها للقراءة والكتابة، لم أكن في حاجة كبيرة للاندماج بالناس مره ثانية لفترة قصيرة؟ ثم أن هناك شيئاً أساسياً وراء كل الصعوبات، ووراء الأسابيع من العلاج التي بدأت الآن، هو أن لها نهاية وسيأتي اليوم الذي سأغادر فيه هذا الفندق، وأسير في هذا الشارع نفسه بقوة ونشاط، بعد أن أستعيد قواي وحيويتي وأتمتع بالشفاء وأقول وداعاً للحمامات ولآلام الركب وأصل إلى المحطة راقصاً فرحاً.

في اللحظة التي دخلت فيها الفندق، بدأ لسوء الحظ، مطر خفيف يهطل، قالت موظفة الاستقبال بلهجة ودية مداعبة «جئت لنا بالطقس السيء» قلت مرتبكاً لا وتساءلت أيعقل ذلك، هل أنا الذي استدعيت هذا المطر، وسيّرته وأحضرته معي؟

وحتي إذا كانت هذه الطريقة بالنظرالي الأمور تناقض العقل والإدراك فإنها لا تبرئني أنا اللاهوتي الصوفي. وبالضبط كما أنه بمعنى ما أنت مسؤول عن اسمك ومركزك وعمرك وشكلك ومرضك، ولا تتهم أحداً بمسؤوليته عن كل ذلك إلا نفسك، فإن ذلك هو موقفي أمامها بالنسبة للمطر، وقد أبديت استعدادي للاعتراف بالمسؤولية.

بعد أن قلت ذلك للموظفة الشابة، وملأت بطاقة التسجيل، دخلت في مفاوضات حول الغرفة التي سأقطنها، وهي مفاوضات لم يخبرها الشخص العادي الراضي ولا يعرف أي شيء عن رعبها، لا يدرك تعاستها إلا كاتب اعتاد العزلة والهدوء الكامل أو شخص يعاني من قلة النوم وجد نفسه مقطوعاً في فندق غريب.

اختيار غرفة في فندق، شيء تافه بالنسبة لشخص عادي،

عمل يمكن أن يتم في دقيقتين. أما لمن هم مثلنا، نحن العصابيين المصابين بالأرق والمرضى بنفوسهم فهو عمل مثقل بذكريات عجيبة وعواطف ومخاوف قد تصل بالمرء إلى حافة الاستشهاد. فيصدر مدير الفندق الكريم لموظف الاستقبال المتعاطف بناء علي ترددنا وإصرارنا، أوامره بإعطائنا الغرفة الوحيدة الهادئة لديه، وهو لا يعلم ما تستدعيه إلى عقولنا هذه الكلمة «أهدأ غرفة» من تداعيات ومخاوف ومهازل وسخرية، كم هي دقيقة ومرعبة معرفتنا بهذه الغرف الهادئة. هذه المحطات لأكثر آلامنا مرارة، وأعظم هزائمنا حزناً، وأكبر مذلاتنا سرية، وكم هو خادع وزائف وماكر أثاثها الودي، سجاجيد جميلة وورق حائط مريح، وتكشيرة مميتة ترتسم على صفحة هذا الباب الذي يفصل الغرفة المجاورة. باب التعاسة في معظم الغرف، وكأنه دورة الشرير فهو يختفي دوماً خلف شيء معلق علي الجدار. ثم سقف الغرفة الأبيض الناصع كأنه يبتسم لك. ونظراته البائسة المستسلمة له لأنك تعرف أنه سيسمعك بعد ذلك خطوات من يعيشون في الغرفة العلوية وليت الأمر يقتصر على الخطوات. فقد ألفناها وليست هي العدو الأسوأ. لكن فوق ذلك السطح البريء الأبيض، ومن خلال ذلك الباب الرقيق أيضاً تصلك قرقعة، وجلجلة، وطقطقة، واهتزازات لا يمكنك تخيلها. أحذية تقذف، عصي تقع على الأرض، ارتعادات بإيقاع قوي (إشارة علي تمارين صحية)، كراسٍ تقلب، كتاب أو كوب يسقط عن طاولة، صناديق أو قطع أثاث تُحرك وتُجر، وأصوات آدمية مختلفة، حوارات ومنولوجات، سعال، ضحك، شخير، وأسوأ من ذلك كله الخشخشة المجهولة التي لا يمكنك تفسيرها. وتلك: الأصوات الغريبة الشبحية المتكررة والتي لا

تستطيع أن تعرف أو تخمن مصدرها، كذلك الأرواح الطارقة القارعة، والطرقعة والفرقعة والصفير والحفيف والشنط والنقر والتنهد وصوت هبوب الرياح والغليان - وما يعلمه الله وحده من حجم الأوركسترا الخفية المختفية في عدة أمتار مكعبة لغرفة فندق.

وهكذا فإن اختيار غرفة لمن هم مثلنا، قضية حيوية ومهمة جداً، وهناك احتمال يصل إلى عشرين في المائة أن تؤخذ مطالبك في الاعتبار. وقد يكون الجدار، في غرفة ما، هو مصدر المفاجآت، وقد تكون أنابيب التدفئة، وقد يكون جارك الذي يعزف على آلة ما ومن كل تجاربي لا توجد غرفة في فندق يمكن أن تضمن لك نوماً هادئاً طويلاً دون إزعاج، لكن الغرفة الهادئة نسبياً تمنع المفاجآت على الأقل (لكن ألم اسكن ذات مرة غرف منعزلة من غرف الخدم في الطابق الخامس لأضمن أن ليس هناك من يسكن في دور علوي، لأكتشف بعد ذلك أن فوق هذه الغرفة علبة مكتظة بالجرذان التي لا يهمد صريرها).

ألا ينبغي للمرء أن يدع في النهاية كل محاولات الاختيار ويترك الأمر في يد القدر ولصدفة أن تختار؟ أليس ذلك أفضل من عذاب النفس وقلقه؟ أليس أكثر راحة لنا أن نترك الأمر للصدفة العمياء ونأخذ أول غرفة تعرض علينا؟ بالتأكيد ذلك أكثر ذكاء ولكننا لا نفعله أو نادراً ما نفعله. وإلا إذا جعلنا من الذكاء وتجنب الانفعال دليلنا لتلبية مطالبنا فكيف ستبدو الحياة آنذاك؟ ألا نعلم جميعاً أن مصيرنا قد ولد معنا وأن لا مهرب منه ومع ذلك نتشبث بحرارة بوهم الاختيار والإرادة الحرة؟ ألا يمكن لكل واحد منا حين يختار طبيباً ليعالجه أو وظيفة ليعمل بها أو مكاناً

ليقيم فيه أو عروساً ليتزوجها أن يترك ذلك للصدفة البحتة؟ وقد يكون في ذلك أكثر نجاحاً؟ ألا يختار بالطريقة نفسها بعد أن يبذل كثيراً من الجهد والعناية والعاطفة؟ ربما يفعل ذلك بسذاجة معتقداً بحماسة طفولية بقدرته ومقتنعاً بأن القدر يمكن السيطرة عليه أو قد يفعل ذلك متشككاً ومقتنعاً تماماً بعبث جهوده ولكن بالدرجة نفسها من الثقة يعرف أن العمل والجهد والاختيار وتعذيب النفس أفضل أكثر حيوية وإمتاعاً من الوقوف جامداً مستسلماً للأقدار. وهو نفسه الذي أفعله في بحثي الأبله عن غرفة برغم إدراكي العميق لعبثية ذلك ولسخافة ما أفعله مرة تلو الأخرى في هذه المفاوضات، المعلومات التي أطلبها عن الجيران والأبواب المزدوجة وهذا وذاك. هي لعبة ألعبها، ورياضة أندمج فيها، أترك نفسي فيها تماماً لوهم اللعبة متمسكاً بمبادئ خيالية بأن هذه المطالب سهلة المنال وتستحق بذل الجهد، وبذلك أتصرف بذكاء أو بالأحرى بغباء طفل يشتري قطعة حلوى أو كمقامر يضع رهانه وفق نظام رياضي معين، وفي مثل كل هذه المواقف نعرف تماماً أننا نواجه صدفة بحتة، ومع ذلك، ولحاجة نفسية عميقة نتصرف وكأنْ ليس هناك شيء اسمه مصادفة وأن كل شيء في العالم خاضع لسيطرتنا وحكمنا الصائب.

وهكذا تناقشت ومحصّت الغرف الخمس أو الست الشاغرة في الفندق مع فتاة الاستقبال. عرفت أن إحدى هذه الغرف يسكن بجوارها عازف فيولين يتدرب يومياً لمدة ساعتين، ابتعدت إلى أقصى ما يمكنني عن هذه الغرفة وعن الطابق الذي تقع فيه، باختصار فعلت ما هو ضروري ومعقول، تصرفت بحذر ووعي بالطريقة التي يجب أن يتصرف بها العصابي حين يختار غرفة

نومه مع الانتهاء إلى النتيجة العادية التي يمكن التعبير عنها بالشكل التالي: لن يجدي ذلك نفعاً، وسأواجه في هذه الغرفة خيبة الأمل والمضايقات نفسها التي واجهتها في غيرها، لكني مع ذلك فعلت ما عليّ وأديت واجبي وبذلت جهداً كبيراً وأترك الباقي على الله.

وفي الوقت نفسه، فإن الصوت الناعم العميق الآخر داخلي يقول كالعادة: أليس من الأفضل لو تركت الأمر كله بيد الله وتوقفت عن هذا العبث؟ أسمع الصوت كالعادة ومع ذلك أتجاهل سماعه، ولأني كنت في حالة نفسية جيدة وراضٍ عن نفسي فقد سارت الخطوات بشكل مناسب وهكذا شاهدت متاعي القليل ختفي في غرفة «٦٥» وشققت طريقي إلى الطبيب فهذا هو موعدي معه.

عند استرجاعي للأحداث أعترف أنه كان يعتريني قليل من الخوف من هذه الزيارة، ليس لأني أخاف أن تكون نتائج تشخيص حالتي سيئة، ولكن بسبب طبيعة تفكيري، فأنا أضع الاطباء في منزلة عالية وأعتبرهم من أصحاب النفوذ والسلطة الروحية، وأتأثر بالغ التأثر من أي تصرف خائب من أحدهم، والذي يمكن أن أقبله بسهولة من محصل في السكة الحديد أو موظف في بنك أو حتى من محام.

أتوقع من الطبيب - ولا أعرف لماذا؟ أن يكون لديه بقايا من تلك الإنسانية التي يتمتع بها الحكماء الذين يعرفون اللاتينية واليونانية والفلسفة، الأمور التي ليست مطلوبة في معظم وظائف اليوم، والغريب أني أنا المملوء بالحماسة للجديد والثوري أكون في

هذا الجانب محافظاً تماماً، وأطلب من الطبقات العليا الأكثر تعليماً مثالية معينة، واستعداداً خاصاً للفهم والشرح بعيداً عن المصالح المادية، مع علمي أن مثل هذا لم يعد موجوداً في الواقع، وأن ما يمثله سيوجد في المستقبل في متحف الشمع فقط .

بعد فترة انتظار قليلة، أُدخلت إلى غرفة جذابة جدا مُزينة بذوق سليم، مما عزز ثقتي. بعد صوت اندلاق المياه في الغرفة المجاورة، دخل الطبيب، وجه ذكي يعد بالتفهم، تصافحنا بحرارة، كما يفعل الملاكمون ذوو الأخلاق قبل المباراة، بدأنا المعركة بحذر يختبر كل منا الآخر نجرِّب أولى ضرباتنا باحتراس، وما زلنا على أرض حيادية، دار نقاشنا حول الاندثار والتجدد بالنسبة للخلايا، والتغذية والسن والأمراض التي سبق أن أُصبت بها، وما إليه، عند بعض الكلمات كانت. تتقاطع نظراتنا عارية في المعركة، كانت تحت إمرته عدة تعبيرات علمية من لغة الطب السرية التي أفك رموزها بصعوبة، ساعدته بشكل فعال في تفسيراته الأنيقة، وعززت موقفه تماماً لكن بعد عدة دقائق اتضح لي أنه لا داعي للخوف من خيبة الأمل المرعبة مع هذا الطبيب، خيبة أمل واجهتها مع أطباء كانت مؤلمة لي، فوراء المظهر الذكي المتعلم المرموق للواحد منهم، تكتشف تعصباً مقيتاً في طريقة التفكير، وأن كلمات المريض لا أهمية لها وماهي إلا ظاهرة ذاتية محضة، وأن رأي الطبيب له صحة موضوعية مؤكدة. لا، أنا هنا الآن أتعامل مع طبيب يستحق أن يتواصل معه المرء، فهو لم يكن ذكياً بالمعنى الحرفي فقط، ولكنه كان حكيماً أيضاً بدرجة كبيرة، بمعنى أنه يمتلك إحساساً بنسبية كل القيم الثقافية. ويحدث دائماً وسط المثقفين الحقيقيين، أثناء الحوار أن يدرك الواحد منهم أن العقلية واللغة،

والتعنت وميثولوجيا الشخص الآخر هي أمور ذاتية، وتشبيهات سريعة أو أمثلة تقريبية، وأنه يجب عليه أن يطبق ذلك على نفسه أيضاً، بمعني أنه إذا تحاور شخصان يجب أن يكونا على وعي دائم بهشاشة أدواتهما، وبإبهام كل الكلمات وباستحالة التعبير الحقيقي الدقيق بالإضافة إلى الاستعداد للأستسلام الضروري للنفس، وللتبادل العاطفي الحذر والتمتع بالفروسية الثقافية. هذه المواقف الجيدة لا بد أن تكون موجودة بين الكائنات المفكرة، لكن ذلك لا يحدث إلا نادراً، حتى إننا نبتهج لو عرفنا أنها تحققت ولو جزئياً. والآن وأنا في حضرة هذا الطبيب المتخصص في أمراض الأيض، لمعت فجأة إمكانية قيام مثل هذا النوع من التفاهم وتبادل الآراء.

نتائج الفحص بعد تحليل الدم والأشعة كانت مريحة. القلب طبيعي، التنفس ممتاز، ضغط الدم معتدل تماماً، لكن من ناحية أخرى كانت هناك إشارات لا يمكن تجاهلها من التهاب المفاصل وعرق النسا وتدهور في القوى العامة للجسم.

ساد نقاشنا فترة صمت، بعدما ذهب الطبيب لغسل يديه ثانية، وكما هو متوقع فهذه هي نقطة التحول، ابتعدنا عن الأرض المحايدة وأخذ شريكي المبادرة بسؤالي بلهجة حذرة وكأن الامر عارض: ألا تعتقد أن آلامك يمكن إرجاعها ولو جزئياً إلى أسباب نفسية في الأصل؟

ها نحن قد وصلنا إلى ما توقعته وخمنت حدوثه، الفحص الموضوعي لا يبرر تماماً مزاعمي بالآلام التي أشعر بها، هناك شكوك ممزوجة بالحساسية هنا، ردود فعلي الذاتية تجاه آلام المفاصل لا تتفق مع الأعراض العادية المعروفة، لذا فأنا أصنف كمريض

عصابي. إذن فلتبدأ المعركة.

قلت بحذر مشابه ووضوح: أنا لا أعتقد في الأسباب النفسية التي تؤثر جزئياً على الأمراض العضوية، ففي مفهومي الشخصي البيولجي والأسطوري أن النفس ليس عاملاً مساعداً يضاف إلى العنصر المادي، ولكنها القوة الأساسية وراء كل شيء، وبالتالي فاني أعتبر أي وضع في الحياة، وكل شعور بالفرح والحزن، وكل مرض أو تعاسة أو وفاة أو نفسية الأصل والمنشأ ونابعة من الذات والروح. فلو عانيت آلاماً في عُقل الأصابع فسببها النفس، ذلك هو المبدأ المبجل للحياة، الـ «هي» التي بداخلي، تلك التي تعبر عن نفسها بشكل مادي، إذا كانت نفس المرء تعاني وروحه تقاسي فإنها تقول ذلك بأشكال مختلفة، وما يظهر على شخص من ازدياد حامض البوليك الذي قد يؤدي لوفاته، يظهر على شخص آخر في شكل إدمان للخمور، وفي شخص ثالث بخبطة في الدماغ «إلخ» وفي معظم الحالات فإن إمكانية المساعدة من الطبيب تنحصر في اصطياد المادي والأعراض الثانوية ومصارعتها بوسائل مادية مساوية لها. وحتى هذه اللحظة كنت أضع في الحسبان إمكانية أن يتنكر لي الطبيب وقت الشدة. من المؤكد أنه لن يقول مباشرة «يا سيدي ما تقوله كلام فارغ» بل قد يبدي الموافقة مع ظل ابتسامة ذات معنى ترتسم على شفتيه، أو يقول شيئاً سخيفاً عن تأثير المزاج أو الطبع خاصة على الروح الفنية وقد يضيف إلى هذه المماطلة الكلمة القاتلة بأن كل ذلك: «غير محسوس»، هذه الكلمة هي المحك، الميزان الدقيق لقياس الكميات الروحية داخله والتي يسميها العلماء العاديون «غير محسوسة» ولأنهم دائماً يستخدمون هذه الكلمة المناسبة حين يعبرون عن مظاهر الحياة

المختلفة، التي تقف أمامها كل أجهزتهم المادية المستخدمة في القياس عاجزة، بل أيضاً يقف المتكلم نفسه بقدرته وعزمه ضئيلاً أمامها. في الواقع أن العالم في الطبيعة يعرف القليل جداً عن هذه الأمور، ومن بين الأشياء التي لا يعرفها هو أن هناك طرقاً ووسائل قديمة خارج العلوم الطبيعية، متطورة بشكل كبير لقياس ووصف ما يسميه «غير محسوس»، فكل إنجازات توماس الاكويني وموزارت تتعلق بهذا القياس، وكل بلغته الخاصة. فهل أتوقع من طبيب في حمامات العلاج هذه، عملاق في ميدانه، أن يدرك هذه المعرفة الدقيقة؟ لقد توقعت ذلك، ولم يخب أملي، لقد فهمني. لقد أدرك هذا الرجل أنه لا يواجه شخصاً غريباً متعنتاً، ولكن أمامه مباراة في الفن والموسيقى، لا يوجد فيها منافسة أو غالب ومغلوب أو تساؤل من هو الذي على حق؟ وانما هناك تردد صدى عاطفي، أو غياب هذا التردد.

فهمني وأدرك ما أقصده، لم يفهم أني على صواب بالطبع وهو شيء لم أتمنه إطلاقاً، ولكنه فهمني كباحث ومفكر وقطب مضاد وزميل من كلية وجامعة بعيدة لكنها تنافس عن جدارة كليته وجامعته.

وحالتي المعنوية التي ارتفعت نتيجة لتحاليل الدم والضغط والتنفس، وصلت الآن إلى نقطة عالية. فلنترك الجو الممطر وآلام المفاصل والعلاج كل يأخذ طريقه كما يشاء. لم آت إلى هنا لأقع في أيدي الهمج كما تخوفت، أنا في حضرة إنسان زميل، ذي عقل مرن ومتميز، يكفي أن هذا الرجل الذي أعطيته لبعض الوقت فرصة التفوق عليّ، والذي سأضع فيه ثقتي واقتناعي، هو في رأيي يحمل شهادة في النضج الإنساني، فلينظر اليوم إليّ كمثقف

نشط وكمريض عصابي نوعاً ما، فستأتي الساعة حتماً التي سيحدق فيها بإمعان في مخزني العلوي، في صرحي حيث معتقداتي وفلسفتي الخاصة، وآنذاك ستدخل في مباراة ومنافسة مع معتقداته وفلسفته.

راضياً عن نفسي، ومسلحاً بعدة تذاكر طبية للعلاج، قلت للطبيب وداعاً. وفي دفتر الملاحظات كانت قائمة إرشادات العلاج الذي سيبدأ في الصباح الباكر جداً، وتعد بكل الآمال في استعادة الصحة كاملة وأشياء ممتعة أخرى: حمامات، أدوية سحرية للشرب، استحرار كهربي، تمارين رياضية - وهكذا بحيث لا يبقى هناك وقت لكي يشعر الإنسان بالملل.

وأن يصل يومي الأول في منطقة الحمامات إلى ذروته بشكل جميل ومفرح ذلك المساء، يعود الفضل فيه إلى مضيفي. كان العشاء، ولدهشتي، مائدة حافلة مبهجة، بأطعمة لم أذق ألذ منها منذ سنوات، وفي النهاية جلست مع زجاجة من النبيذ الأحمر، أتجاذب حديثاً ممتعاً مع المالك، في غرفة عتيقة جميلة، وإلى مائدة أثرية ثقيلة من خشب الجوز، استمتعت باكتشاف صدى حساس في شخص غريب، رجل من تراث ثقافي وفني مختلف، وحرفة مختلفة وطموح وطراز مختلف في الحياة، تجد أنك قادر أن تشاركه اهتماماته وأفراحه، وأنه يشاركك أيضاً كثيراً من الآراء، لم نعبر عن نفسينا بادعاء متعال، ولكن اكتشفنا نقاط الالتقاء بسرعة، وتقابلنا بتلك العقلية المتفتحة التي سرعان ما تحولت إلى تعاطف.

وأثناء تجوالي تلك الليلة في نزهة قصيرة قبل أن آوي إلى

فراشي، رايت النجوم تنعكس على المستنقعات التي كونتها الأمطار، ورأيت شجرتين عجوزين جميلتين بشكل مدهش تهتزان بريح الليل على شاطئ النهر العميق المدمدم. في الغد أيضاً ستظلان تحتفظان بجمالهما، لكن هذه اللحظة فإن جمالهما السحري غير المتكرر والذي ينبع من أرواحنا نحن، والذي لا يتوهج فينا حسب ما يعتقد اليونانيون، إلا حين يقود خطانا «إيروس» إله الحب.

الرجل الهولندي:

حين اخترت غرفتي رقم ٦٥ منذ أسبوعين، اخترتها بعناية وتبصر كثيرين، ولم يكن اختياراً سيئاً، فورق الحوائط نظيف وبراق ومتناسق، والسرير له فجوة في الجدار، والضوء جيد، والمنظر الذي تطل عليه -النهر وكروم العنب- جميل، وحيث أنها في الطابق الأعلى من البناية، فلا أحد يسكن فوقي، كما أن الاصوات القادمة من الشارع تُسمع بصعوبة، لقد اخترت بشكل جيد. وقد قالوا لي حين سألت عمن يقطن الغرفتين المجاورتين، أنه على أحد الجانبين تعيش سيدة عجوز، لم أسمع صوتها أبداً، وفي الجانب الآخر، في غرفة ٦٤ يعيش الرجل الهولندي! وما أدراك ما الرجل الهولندي، فخلال اثني عشر يوماً مريراً أصبح هذا السيد مهما لدرجة كبيرة، أصبح في نظري شخصاً خرافياً، صنماً، شيطاناً، شبحاً، لم استطع التغلب عليه إلا منذ عدة أيام فقط.

قد لا يصدقني أحد حين أروي حكايته، هذا الرجل الهولندي الذي تداخل مع عملي، والذي حرمني نوم الليالي، ليس رجلاًمجنوناً وأصبح مسعوراً، ولا موسيقياً متحمساً، ولا يأتي

إلى غرفته مخموراً في ساعات غير متوقعة، أو يتشاجر ويضرب زوجته، لا يغني ولا يصّفر ولا يشخُر أو على الأقل ليس بصوت عالٍ يمكن سماعه، هو رجل صلب، ملتزم بالقانون، وليس شاباً، يعيش بانتظام الساعة، وليس له عادات ملفتة للنظر. فكيف يمكن لرجل هذه صفاته أن يجعلني أقاسي لهذه الدرجة؟!

شيئان فقط هما سبب شقائي، بين الغرفة ٦٤، ٦٥ باب مغلق بالطبع وخلفه طاولة، لكنه ليس باباً سميكا لسوء الحظ، وهو شيء لا يمكن فعل شيء تجاهه. الأمر الثاني وهو الأسوأ أن للهولندي زوجة لا يغريها شيء يجعلها تخرج من الغرفة، وهو -الزوج- لسوء الحظ غير العادي، يشبهني تماماً فهو ينتمي إلى الفئة القليلة من ضيوف الفنادق، الذين يمضون الجزء الأكبر من أيامهم داخل غرفهم.

والآن، لو كان معي زوجة، أو لو كنت مدرساً للموسيقى، وعندي بيانو، أوكمنجة، أو طبلة، أو بوق، لأمكنني أن أتصارع مع الرجل الهولندي وأطمع في النجاح، لكن الموقف كان كالتالي: خلال الاربعة والعشرين ساعة في اليوم، فانهما لا يسمعان صوتي إطلاقاً، أعاملهما كما يعامل الملوك أو المرضى على حافة قبورهم، وأمنحهما دائماً صمتاً كاملاً لا يتخيلانه، ولكن كيف ردا لي هذا الصنيع؟ منحاني فترة راحة مدتها ست ساعات كل ليلة، من الساعة الثانية عشرة وحتى السادسة صباحاً، وهي فترة نومهما، وعليّ في هذه الساعات الست أن أقوم بعملي وأصلي وأتأمل وأنام، وأما باقي اليوم، فأنا لا أملكه بأي حال، لا يخصني، لا يوجد في غرفتى بل في غرفة ٦٤، ثمان عشرة ساعة من الحديث والضحك المتواصل، ضيوف تأتي وضيوف تذهب. لا يوجد إطلاق

للألعاب النارية، ولا عزف للموسيقى ولا صراع بالقبضات، ويجب أن أعترف بذلك، كما لا توجد أية قراءة أو تأمل أو صمت أو هدوء أو خمسة أشخاص يتحدثون مرة واحدة، وفي أواخر الليل يظل الاثنان يتحدثان حتى الحادية عشرة والنصف، ثم تبدأ بعد ذلك قعقعة الكؤوس وأطباق الصيني، ثم تنظيف الأسنان ولحن المضمضة، ثم تحريك بعض الكراسي، ثم صوت السرير وهو يصر، فالهدوء حتى السادسة صباحاً، حين ينهض أحدهما، لا أعرف مَن: هو أو هي فيهز الأرضية وهو ذاهب إلى الحمام ليعود بعد قليل، ويكون ميعاد ذهابي إلى الحمامات قد أزف، وحين أعود إلى الغرفة يكون فيضان الحديث الذي لا ينقطع قد بدأ ليستمر حتى قبل منتصف الليل بقليل. والآن، لو كنت إنسانا عادياً معقولاً لكيفت نفسي بسهولة مع هذا الوضع، أقضي اليوم في أي مكان عدا غرفتي، اقرأ في غرفة القراءة أو غرفة التدخين أو في الممرات أو في الكازينو أو المطاعم كما يفعل معظم النزلاء، ثم أنام ببساطة في الليل. لكني بدل ذلك تجدني ممسوساً بالرغبة المرهقة المقلقة السخيفة، بقضاء معظم ساعات اليوم في غرفتي، أجلس إلى مكتبي أصارع كي أفكر وأكتب، وغالباً أمزق ما كتبته، وفي الليل تنتابني بالطبع رغبة جارفة في النوم. لكن الاستغراق في النوم بالنسبة لي عملية معقدة تستمر عدة ساعات، وحتى لو نمت، فإن نومي خفيف جداً يكفي لتمزيقه مجرد نفس بجانبي. حين تأتي الساعة العاشرة مساء أكاد أموت من التعب، ويداعبني النوم ومع ذلك لا أستطيع مادام الهولندي وزوجته يقومان بحياتهما الاجتماعية، وبينما أنتظر مرهقاً قدوم منتصف الليل ليمنحني الهولندى الإذن بالاستغراق في النوم، فإن الانتظار والإصغاء

والتفكير في عمل الغد، وكل ذلك يجعلني مستيقظاً تماماً حتى يمر الجزء الأكبر من ساعات النوم الممنوحة لي دون أن أنام. لست في حاجة إلى القول وبوضوح أني أعرف كم أنا غير منصف في الطلب من الهولندي أن يدعني أنام فترة أطول، ولست في حاجة إلى القول أني أعي تماماً أنه غير مسؤول عن نومي السيء وميولي الثقافية، وإنما أكتب ما أكتبه لا لأدين الآخرين أو أبرئ نفسي، ولكن لأسجل تجربة ربما تكون أكثر التجارب تشوهاً وغرابة لمريض نفسي. ويبقى السؤال الأكثر تعقيداً حول تبرير سلوك المريض النفسي، تلك القضية المرعبة التي تصدم المرء، وهي أنه تحت ظروف معينة من الوقت والثقافة، كيف يفضل المرء أن يكون مريضاً نفسياً أو يعتبر نفسه كذلك بدل أن يكيّف نفسه حسب الظروف ويضحي بالمثاليات؟ هذا السؤال المزعج، سؤال كل العقول المميزّة منذ نيتشه، لن أمسّه في هذه الصفحات، وعلى أية حال فهو موضوع معظم كتاباتي. وهكذا في هذه الظروف التي شرحتها، أصبح الهولندى مشكلة بالنسبة لي، ولا أستطيع أن أفسر لنفسي لماذا أهتم بالفكر والكلمة بالهولندي فقط؟ بشخصه بالذات؟ فهناك في النهاية اثنان، ربما الشهامة الفطرية تجعلني أشعر بالتسامح مع المرأة أكثر من الرجل، أو ربما صوت الرجل ووقع خطواته الثقيل، وهي الأشياء التي تضايقني بالفعل، على كل حال إنه هو وليست هي، الذي يجعلني أقاسي. وهناك سبب جزئي أيضاً في إبعاد المرأة عن مشاعر الكراهية وتجسيد الرجل كعدو وخصم أسطوري، وهو سبب يرتكز على دافع أولي عميق، فالهولندي رجل يتمتع بصحة جيدة، ومظهر ناجح، وسلوك مبجل، ومحفظة ممتلئة بالنقود، وبسبب نموذجه هذا فهو يشكل العدو

بالنسبة لي. إنه سيد في حوالى الثالثة والأربعين من العمر، متوسط الطول، قوي البنية، ربعة يعطي انطباعاً بالصحة الجسدية والنفسية، والوجه والجسم مربعان وممتلئان، لكن لا يلفتان النظر، رأسه الكبير وحواجبه الكثيفة نوعا ما، يبدو وكأنهما يضغطان على جسده بشدة، إذ أن رقبته قصيرة تكاد تختفي، وبرغم أنه يتحرك برزانة، وله سلوك تُعجب به، فإن وزن جسمه وحماسته تجعل، لسوء الحظ، حركاته وخطواته مضخمة ومسموعة لدرجة مكروهة في الجار. صوته عميق وعلى وتيرة واحدة ليس فيه تنويع في النغمة أو الطبقة، شخصيته بلا تحيز تشع بالجدية، شخصية مطمئنة، يوثق بها، وتعطي انطباعاً بالتعاطف، أما الجانب المزعج، فهو إصابته المتكررة بنزلات البرد الخفيفة (وهذا حقيقي مع كل ضيوف الحمامات) وهي التي تجعله يكحّ ويعطس ويتمخّط بعنف. وفي هذه الأصوات التي يُصدرها تجد قوته وحيويته تعبيراً لها. ولسوء حظ هذا الرجل الهولندي أن يكون جاري. في النهار هو العدو المهدد والمدمر غالباً لعملي الثقافي، وفي جزء من الليل هو المحطم لنومي.

ومن المؤكد أيضاً أن وجوده لم يسبب لي إرهاقاً وعقاباً كل يوم، فهناك عدد من الأيام المشمسة التي سمحت لي أن أعمل بالخارج، في أيكة بعيدة في حديقة الفندق، أضع ملفي على ركبتي واملأ الصفحات بالكتابة، أصارع أفكاري وأتتبع أحلامي أو أقرأ برضى.

ولكن في الأيام الباردة المطرة، وهناك الكثير منها، أجد نفسي طوال اليوم وجهاً لوجه مع عدوي وراء الحائط. وبينما أنا معلق وراء مكتبي، مركزاً بصمت على عملي، يندفع الهولندي

ذهاباً وإياباً في غرفته، يبصق في الحوض، يلقي بنفسه على كرسي، يتحاور مع زوجته، يضحك معها على النكات، أو يستمتع بصحبة من الأصدقاء، وتكون هذه الساعات مزعجة جداً بالنسبة لي. ومع ذلك فقد كان عملي نفسه يساعدني أحيانا بدرجة كبيرة، لست بطلاً في العمل ولا أستحق جائزة على الاجتهاد، لكن إذا تملكتني رؤية ما، أو دارت في ذهني مجموعة من الأفكار المتتابعة، وضغطت على نفسي وبدأت أعطي هذه الأفكار شكلاً، واندمجت فيها، فإني أستمر في العمل ولا أُعير شيئا التفاتاً مهما كانت أهميته. جاءت ساعات خُيل فيها إليّ أن كل هولندا تحتفل بعيدها في الغرفة المجاورة، وبالكاد لاحظت ذلك لأني كنت قد فُتنت وانجرفت مع اللعبة الممتعة الوحيدة الجذابة للناسك، أتسابق مقطوع الأنفاس وراء أفكاري بقلم مسحور، أبني الجمل واختار ما أريد من بين فيضان التداعيات، أتصيد بإصرار الكلمة المناسبة، قد يضحك القارئ ولكن بالنسبة لنا نحن الكتاب فإن الكتابة تكون في كل مرة عملاً مجنوناً مثيراً، رحلة في مركب صغير في بحر مضطرب، طيران منفرد في الكون، وبينما يحاول المرء اختيار كلمة من كلمات ثلاث تطرح نفسها، فإنه في الوقت نفسه يناضل من أجل أن يضبط النغمة والاحساس في كل جملة مختارة، ويَحكم ربط رتاج هذا البناء، فهو يكافح في الوقت ذاته على مراعاة نغمة وتناسق الكتاب كله، وذلك نشاط مثير للانفعال. أعرف من تجربتي الخاصة أن هناك نشاطاً آخر وحيداً مشابهاً، له التوتر والتركيز نفسه، إنه الرسم. إن خلط لون مع لون آخر بعناية أمر سهل وممتع ويمكن للمرء أن يتعلمه ويحاوله في أى وقت، لكن أن تكون أمام نظر المرء اللوحة غير المرسومة بعد،

بأجزائها غير الظاهرة، وأن يأخذ ذلك في الاعتبار وهو يعمل، مراعيا التذبذبات المتقاطعة لكل لون، فذلك أمر صعب ونادراً ما ينجح.

إن من طبيعة العمل الأدبي أن يتطلب تركيزاً كبيراً، وحين يكون الكاتب في قبضة نبض خلاق مكثف، فإنه يستطيع أن يتغلب تماماً على كل العوائق والإزعاجات الخارجية، إن الكاتب الذي لا يستطيع العمل إلا في كرسي مريح وضوء مريح وعلى ورق خاص وبأدواته المادية المعتادة وما شابه، يثير الشك في نفسي، برغم أننا جميعاً نسعى بالفطرة إلى كل ما يخفف عنا ويريحنا، ولكن حين لا نستطيع تملّك ذلك فإننا نستمر بدونها. وهكذا غالباً ما كنت أنجح بالكتابة، أن أقيم بيني وبين الغرفة المجاورة، حائطاً عازلاً أو مسافة واقية تُظلني لساعة مثمرة، لكن في اللحظة التي يبدأ فيها القلق، وهو شيء يساهم فيه تراكم الأرق، فإن الإزعاجات في الغرفة المجاورة تحضر ثانية.

الأمر مع النوم أكثر صعوبة منه مع الكتابة، ولن أشرح هنا النظرية النفسية البحتة التي تقوم عليها نظريتي في الأرق، وكل ما أقوله، إنه إذا استطعت الكتابة بمساعدة القوة المجنحة للخلق، أن تنجح بين حين وآخر في إبعاد تفكيري وتركيزي بالغرفة ٦٤، فإن محاولات النوم لا تشارك الكتابة هذا الحظ الحسن.

إن الذي يعاني من الأرق، إذا أصبح فريسة لآلامه فترة معقولة، مثل معظم الذين يعانون من الإرهاق العصبي المتقدم، تتكون لديه مشاعر مباشرة من الرفض والكراهية والرغبة في التدمير، ضد نفسه وضد المحيطين به.

وبما أن ما يحيطني ويسبب لي الإزعاج بالتحديد هو هذا

الرجل من هولندا، فقد تراكمت ببطء، خلال هذه الليالي التي قضيتها بلا نوم، مشاعر رفض وقسوة وكراهية ضد هولندا، مشاعر لم يُتح لها أن تنقشع وتزول خلال النهار لأن التوتر والإزعاج كانا مستمرين. إذا كنت مستلقياً في الفراش لا أستطيع النوم بسبب الهولندي، وإذا كنت محموماً من الإرهاق والتوق للراحة سمعت الهولندي في الغرفة المجاورة يخطو بخطواته الثقيلة الثابتة القوية، ويتحدث بصوته العفي، آنذاك تنتابني مشاعر كراهية عنيفة عارمة نحوه.

ومع ذلك، فوسط هذه الفترات العصيبة، أظل واعياً بدرجة ما بسخافة هذه الكراهية، وأبتسم بين الحين وآخر لأقلل من حدتها، لكن الموقف يصبح مميتا حين تتحول هذه الكراهية غير الشخصية، الموجهة إلى الأسباب التي تزعج نومي، وإلى درجة عصبيتي، وإلى الباب غير السميك، إلى كراهية ذات بعد واحد وشخصية، وتنمو بالتدريج لتصبح أكثر سخفاً وأكثر استحالة على التحييد أو اللامبالاة.

وأخيراً، لم يعد يساعدني القول بأن الهولندي شخص بريء، لقد كرهته ليس فقط بسبب خطواته الثقيلة آخر الليل أو حديثة وضحكه دون أعتبار للآخرين، لا، إنى أكرهه فعلاً وحقاً، ذلك الكره الساذج الغبّي الذي يحمله تاجر مسيحي جاهل لليهود، أو شيوعى للرأسمالية، كراهية حيوانية غبية غير مسببة، جبانة وحسودة وهو الشيء الذي أستهجنه دائماً للآخرين، تلك الكراهية التي تسمم السياسة والعمل والحياة العامة، والتي أعتبرت نفسي بعيداً عنها ولا أستطيع أن أحملها، لم أعد أكره سُعاله أو صوته، بل أكرهه هو بشخصه الفعلي، ولو قابلني خلال النهار في مكان

ما لاعتبرته عدواً أثيماً وجانياً شريراً. واستعنت بكل فلسفتي لأمنع فتح أى منفذ تنطلق منه مشاعري. وجهه الناعم السعيد، جفناه الثقيلان، وشفتاه الغليظتان السعيدتان، بطنه تحت معطفه الأنيق، مشيته وسلوكه، كل هذه الأشياء ثقيلة الظل ومكروهة عندي، وأكثر ما أكرهه الملامح العديدة التي تشير إلى صحته وقوته، ضحكته وروحه المرحة، رشاقة حركاته، نظراته المتعالية اللامبالية، وكل الظواهر الجسدية والاجتماعية التي تشير لشخصيته القوية. وكنت أقول لنفسي من السهل أن يكون الإنسان مرحاً ويتمتع بصحة جيدة، ويلعب دور الرجل الراضي، إذا افترس، ليل نهار، قوة ونوم الآخرين، وابتلع باستمرار وتلذذ بالسلوك الحسن وبسيطرة جيرانه على أنفسهم، وجعل الهواء يرتجف، حسب رغبته، بنغمة وذبذبات صوته. فليأخذ الشيطان هذا السيد الهولندي. وطاف بذهني بشكل باهت الهولندي الطائر، ألم يكن هو أيضاً شيطاناً ملعوناً وشبحاً للعذاب؟ وتذكرت بصفة خاصة ذلك الهولندي الذي وصفه مرة الشاعر«مولشاتولي»، ذلك الشخص البدين، الشره، آكل الربا، الذي حصل على ثروته وسعادته من استغلال الآخرين، يا لشجاعتك يا«مولشاتولي»!

سيفهم أصدقائي، الذين اعتادوا على طريقتي في التفكير، وعرفوا مشاعري ومعتقداتي وطبيعة تخيلاتي، كم عانيت من هذا الموقف الصعب، وكم عذبني وأرهقني بدرجة خطيرة هذا الكره الاضطراري، غير الراسخ في القلب، لرجل بريء، ليس بسبب براءة هذا الرجل أو بالظلم الذي أمارسه عليه بتفكيري، ولكن أساساً للامعقولية سلوكي وللتناقض العميق بينه وبين مشاعري الحقيقية

وكل شيء أومن به وأحترمه وأقدسه.

ولأكن أكثر تحديداً، فالشيء الوحيد الذي أومن به بعمق في هذا العالم وأنظر إليه بتقديس هو«الوحدة»، الإيمان بأن كل شيء في العالم يكوّن كلاً مقدساً. قاسيت آلاماً كثيرة في حياتي، وعملت الكثير مما يمكن وصفه بأنه سخيف ومحزن، ولكن كنت دائماً أعمل على تحرير نفسي، أن أنسى«الأنا» وأستسلم لشعورالتوحد، لإدراكي بأن الفصل بين ما هو داخلي وما هو خارجي، بين«الأنا» والعالم، مجرد وهم، وكنت أدخل بترحاب وعيون مغلقة في«الوحدة».

ولم يكن ذلك سهلاً بالنسبة لي، ولقد واجهت مرات ومرات تلك المعجزة التي أعطاها رجال الدين المسيحي الاسم الجميل«الإحسان»، تلك التجربة المقدسة للإصلاح والاسترخاء، والتوقف عن الثورة والتمرد، والموافقة برحابة صدر، والتي في النهاية ما هي إلا التنازل المسيحي عن«الأنا» والإدراك الهندوسي للوحدة.

وهأنذا الآن مرة ثانية خارج هذه الوحدة كلية. «أنا» منفصلة تعاني وتكره وتعادي. هناك كثيرون في مثل حالتي، فأنا لست وحدي، فحيوات ملايين الناس معركة، تأكيد للذات يأخذ شكل الحرب، الأنا ضد العالم، ملايين الناس لا تعرف فكرة«الوحدة» أو الحب أو التناغم وقد تبدو لهم هذه الأشياء غريبة وسخيفة وضعيفة. ودين الرجل العادي في العالم المعاصر يتركز في تمجيد «الأنا» ومعاركها، والذي يشعر بالراحة في تمجيد وتضخيم «الأنا» هو الساذج أو القوي غير المروض في الطبيعة، أما بالنسبة للعقلاء، أولئك الذين اكتسبوا الرؤية من خلال الألم، ونمت عقولهم

خلال المعاناة، فلا يجدون السعادة في مثل هذه المعركة، وإنما يدركونها فقط عبر استسلام«الأنا» من خلال تجربة«الوحدة». أما هؤلاء البسطاء الذين يحبون أنفسهم فقط، ويكرهون اعداءهم، أولئك الوطنيون الذين لا يشكوّن في أنفسهم أبداً لأن كل البؤس والخراب في بلدهم ليسوا هم سببه وإنما العدو، الفرنسيون أو الروس أو اليهود، لا يهم، ولكن المهم أن أحداً غيرهم هو المسؤول وهو العدو. بالطبع تسعة أعشار العالم بهذا الشكل، وهم سعداء بالفعل بدينهم البدائي الوحشي، وهم يعيشون حياة سعيدة، سهلة، يُحسدون عليها متسلحين بالغباء والبعد عن التفكير. ومع ذلك فإني أشك في هذه النتيجة، فأين مقياس السعادة الذي يمكن أن يقيس سعادتي وسعادتهم أو معاناتي ومعاناتهم!

لقد كانت ليلة طويلة مؤلمة، تلك التي دارت في ذهني فيها هذه الأفكار. أستلقي في فراشي ساخناً ومرهقاً، ضحية للرجل الهولندي في الغرفة المجاورة، والذي يكح ويبصق ويندفع هنا وهناك، بينما عيناي مجهدتان من القراءة الطويلة (وماذا كان يمكنني أن أفعل غير ذلك)، وشعرت آنذاك بالتحديد، بأنه لابد أن ينتهي هذا الوضع، وينتهي العذاب والغضب، وما أن برق هذا القرار في ذهني لامعاً بارداً كشمس الصباح، وما أن بدا واضحاً أمام نفسي «يجب أن يوضع حد لهذا الوضع» حتى بدأت تتنطط في ذهني تلك الخيالات القاسية والمعروفة جيداً لكل مَن يعاني من أعصابه خاصة في لحظات الألم الشديد. وبدا لي أن هناك طريقتين لا ثالث لهما لإخراجي من هذا الموقف البائس، وعليّ أن أختار بينهما: إما أن أقتل نفسي أو أفعل الشيء نفسه للهولندي، أقبض على حلقه وأنتهي منه (في هذا الوقت كان يكح بحماس هائل)،

القتل فكرة جميلة ومهدئة وإن كانت طفولية. هناك جاذبية في أن يقتل المرء نفسه بإحدى الطرق الكثيرة العادية المتكررة، المصحوبة بمشاعر الشخصية المنتحرة، «سيفيدك كثيراً قطع عنقك الآن»، لكن الفكرة الأخرى أيضاً جذابة، بدل أن تهاجم نفسك، اقبض على الهولندي، اخنقه أو أطلق عليه الرصاص، فتعيش منتصراً على وحشيته وحيويته. هذه التخيلات الوهمية غادرتني في الحال، قد يُسلم الإنسان نفسه برهة، ويبحث فيها عن ملجأ، لكن سرعان ما تذبل وتفقد سحرها، بعد فترة قصيرة من التجول عبر هذه المذهلات. فقدت الرغبة قوتها، وعليّ أن أعترف أن رغبتي هذه كانت لحظية ومبالغاً فيها، فلم أكن أرغب حقيقة في إنهاء حياتي أو حياة الهولندي. مجرد تركه للغرفة سيكون كافيا جداً، وعليّ أن أتخيل هذا الرحيل. أضأت النور، وأخرجت دليل الرحلات من درج الطاولة قرب السرير، وجاهدت لوضع خطة لاتشوبها شائبة، يتبعها الهولندي في مغادرته في الصباح الباكر ووصوله إلى منزله بأسرع وقت ممكن. وقد سرّني هذا الوضع. رأيته ينهض في برد الصباح الكئيب، أسمعه لآخر مرة يدخل دورة المياه في الغرفة رقم ٦٤، يلبس حذاءه، ويخبط الباب خلفه، يرتعد وهم يقودونه إلى المحطة، رأيته يركب القطار، ويتشاجر في الساعة الثامنة مع رجال الجمارك في بازل، وكلما أخذته أفكاري مسافة أبعد شعرت بأني في حالة أفضل. ولكن في الوقت الذي وصل فيه إلى باريس، تبعثرت قوتي على التخيل، وتناثرت الصورة كلها قبل أن يصل الهولندي إلى حدود بلاده، كل هذا كان تمضية للوقت فقط، فالعدو داخل نفسي لا يمكن هزيمته بهذه السهولة وبهذه الطريقة الرخيصة. ليست القضية، هي أن أنتقم من الهولندي بشكل ما، ولكن

القضية ببساطة هي أن أحقق موقفا ايجابيا تجاهه يتناسب مع نفسي.

وكان العمل واضحاً تماماً، يجب أن أفتت هذه الكراهية التي لا معنى لها، وعلي بالمقابل أن أحب هذا الرجل الهولندي، ولأدعه بعد ذلك يبصق ويدمدم كما يشاء، فسأكون أفضل وأكثر رقياً منه، عليّ أن أختبر نفسي ضده، إذا نجحت في حبه، فإن كل صحته وحيويته لن تساعده بأي حال، سيكون ملكي، ولن تكون صورته في تعارض مع فكرة الوحدة، إلى العمل إذن، فالهدف يستحق، والأمر يرجع لي في الاستفادة من ليلتي الأرقة هذه.

وبرغم أن العمل سهل، لكن سهولته تعادل صعوبته، وقضيت طوال الليل بالفعل لإنجازه، كان عليّ أن أقوم بتحويل الهولندي وإعادة صياغته وتشكيله، من شيء أكرهه، من منبع للآلام إلى شيء أحبه وأتعاطف معه، إلى أخ لي.

إذا لم أنجح، ولم أستطع إنتاج درجة الحرارة الضرورية لإعادة الصياغة هذه، إذن فأنا ضائع، وسيظل الرجل الهولندي ممسكاً بخناقي ليشنقني في الأيام والليالي المقبلة.

عليّ أن أحقق ببساطة القول الرائع «أحبوا اعدائكم»، وقد اعتدت منذ فترة طويلة، أن أنظر إلى هذه الحكمة الغريبة المأخوذة من العهد الجديد، ليس بشكل أخلاقي، وليس كأمر «يجب عليك»، ولكن كاقتراح ودي من إنسان كان حكيماً بحق، كان ينصحنا «حاولوا اتباع هذه الحكمة حرفياً وستدهشون كم من الخير سيتحقق لكم».

أعرف أن هذه النصيحة لا تحتوي فقط على أعلى المطالب

الأخلاقية، ولكن على أكثر القواعد النفسية الفعالة للسعادة، كما أن نظرية الحب في العهد الجديد، إضافة إلى كل معانيها الأخرى، تتكون من تقنية نفسية مدروسة جيداً. وكان بيني وبين خلاصي مطلب واحد فقط غير متحقق وهو أن أحب عدوي.

لقد نجحت على كل حال، لم يعد الرجل الهولندي لاصقاً بعنقي وقد أعدت صياغته. لم يكن الأمر سهلاً، كلفني ذلك جهداً وعرقاً، مع مجهود شاق وعنيف طوال ليلتين أو ثلاث. ولكني أنجزت العمل في النهاية.

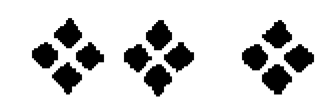
بدأت باستدعاء هيئته المرعبة أمام ذهني في أدق تفاصيلها الممكنة، دون أن تفقد إصبعاً في اليد أو حاجباً او تجعيدة على الخد أو حتى فردة حذاء، رأيته كاملاً أمامي، وتملكته داخلي تماماً، واستطعت أن أجعله يمشي ويجلس ويضحك وينام، صورته وهو ينظف أسنانه في الصباح، وهو يسقط نائماً على مخدته في الليل، رأيت رموشه تتعب ورقبته تستريح ورأسه يتدلى. استغرق ذلك مني ساعة من الزمن، لكني كسبت الكثير، لأن على الشاعر إذا أحب شيئا فعليه أن يقبض عليه في خياله، أن يدفئه ويتعهده هناك، يلعب معه ويشبعه من روحه الخاصة وينعشه بذاته. وهذا ما فعلته مع عدوي حتى أصبح ملكي وتوحد معي. ولولا رقبته القصيرة جداً فربما لم أكن لأنجح، ولكن رقبته أنقذتني، كنت أستطيع ان أخلع عنه ملابسه أو ألبسه، أجلسه في قارب أو على مائدة الغداء، أجعل منه جندياً، ملكاً، شحاذاً، عبداً، رجلاً عجوزاً أو طفلاً، وفي كل هذه الشخصيات التنكرية المختلفة كانت له رقبة قصيرة وعينان بارزتان قليلاً. وهذه كانت نقطة ضعفه ومنها أتحكم فيه، مرّ وقت طويل قبل أن أنجح في أن أجعله يصغر في السن

ويصغر حتى رأيته أمامي، زوجاً شاباً، ثم عريساً، ثم طالباً في الجامعة، ثم تلميذاً في مدرسة، حتى أضحى صبياً صغيراً، وهناك شعرت بالتعاطف معه للمرة الأولى بسبب رقبته، وعن طريق العاطفة الرقيقة كسب قلبي حين رأيت هذا الولد القوى النشيط يتسبب في قلق والديه بسبب استعداده للإصابة بالربو. وتقدمت معه في حياته، وبقليل من الفن تخيلت مستقبل سنواته ومراحل حياته، تمكنت من رؤيته بعد عشر سنوات وهو يعاني من أول نوبة ربو، وفجأة أصبح كل ما يخصه مؤثراً، الشفتان الغليظتان، الجفنان الثقيلان، الصوت الذي لا تتغير طبقته، كل شيء فيه كان يثير عاطفتي، وحتى قبل أن يعاني سكرات الموت في خيالي الجامح، فإن ضعفه وضرورة موته أثرا في نفسي بإحساس أخوي أفقدني كل مقاومة تجاهه، ثم أصبحت سعيداً، أغلقت عينيه بثبات وأغلقت عيني، فقد كان الوقت صباحاً وأنا منهك تماماً استلقي كالشبح وسط المخدرات بعد ليلتين طويلتين في خلق شعري.

أثناء نهار اليوم التالي وليله، كان لدي إحساس أكيد بأني قد هزمت الهولندي. فضحكه أو سُعاله، صوته أو خطواته، دفعه للكراسي أو قوله النكات، كل ذلك لم يعد يزعجني أو يؤثر في رباطة جأشي، وكنت أعمل في النهار بطريقة جيدة إلى حد ما، واستريح في الليل بدرجة معقولة.

كان نصري عظيماً، ولكن لم أستمتع به طويلاً، ففي اليوم التالي بعد ليلة انتصاري، رحل الرجل الهولندي فجأة، ليصبح مرة ثانية هو المنتصر، وتركني في خيبة أمل غريبة، فلم تعد هناك

فائدة من الحب الذي اكتسبته بصعوبة، إن رحيله، الذي كنت أتوق إليه في فترة ما، يسبب لي الألم الآن.



هرمن هسّه في سطور:

◆ ولد في الثاني من يولية سنة ١٨٧٧ في بلدة في مقاطعة Württemberg بألمانيا. وكانت العائلة تعدّه ليكون قساً أو مبشراً، متتبعاً خطوات أبيه وجده لأمه لكنه تمرد على نظام التعليم التقليدي الصارم.

◆ ١٨٩١ دخل المعهد الديني في ماولبورن، ولم يمكث فيه أكثر من ستة أشهر، وقد تعرض للعقاب لهربه من هذا المعهد، فتأثرت نفسيته الحساسة، وحاول الانتحار، فصرف الأب النظر عن التعليم.

◆ عمل في مكتبة في Esslingen لمدة ثلاثة أيام، ثم ترك العمل ومكث في البيت لا يفعل شيئاً سوى القراءة.

◆ ١٨٩٤ أجبره والده على العمل في ورشة لإصلاح الساعات الكبيرة

◆ ١٨٩٥ ترك العمل في الورشة، وانتقل ليعمل في دار للنشر في توبنجن Tübingen، وركز جهده على القراءة وتثقيف نفسه، وظل في هذا العمل أربع سنوات.

◆ ١٨٩٩ عمل في محل لتجارة الكتب القديمة، ونشر أول دواوينه الشعرية بعنوان "أغان رومانسية Romantische Lieder" وكتاب نثري بعنوان "ساعة بعد منتصف الليل: Eine Stunde hinter Mitter nacht كما بدأ يكتب المقالات في الصحف.

◆ ١٩٠١ سافر في رحلة إلى إيطاليا.

◆ ١٩٠٣ سافر إلى إيطاليا ثانية، وتعرفّ هناك على صاحبة محل للتصوير الفوتغرافى تدعى ماريا بيرنولي Maria Bernoulli. ١٩٠٤

تزوج من ماريا بيرنولي، وترك عمله وتفرغ للكتابة نشر أولى رواياته "بيتر جامينزند Peter Gamenzind" التى لاقت نجاحاً كبيراً. كما نشر قصتين "بوكاشيو Boccaccio" وفرانز الأسيسي Franz von Assisi.

◆ ١٩٠٥ ولد طفله الأول برنو.

◆ ١٩٠٦ نشر روايته الثانية "تحت العجلة Unterm Rad.

◆ ١٩٠٩ ولد طفله الثاني هانز.

◆ ١٩١٠ نشر روايته "جرترود Gertrud".

◆ ١٩١١ ولد طفله الثالث مارتن. قام برحلته الأولى إلى الهند بصحبة الفنان H. Sturzengger نشر ديوان شعر بعنوان "في الطريق".

◆ ١٩١٢ انتقل مع أسرته من ألمانيا، ليقيم في برن Berne في سويسرا.

◆ ١٩١٣ نشر "اسكتشات من رحلة هندية Aufzeichnungen eine indischen Reise" وبيت الأحلام.

◆ ١٩١٤ نشر رواية روبهالد Robhalde، كما نشر ثلاث حكايات من حياة كنولب.

◆ ١٩١٤ - ١٩١٨ كتب العديد من المقالات ضد الحرب، وكان من القلائل الذين عارضوها، وقد أدى هذا الموقف إلى كثرة نقاده ومهاجميه، فأصيب بالاكتئاب خاصة بعد موت أبيه، ومرض ابنه الأصغر مرضاً خطيراً، وادخال زوجته مصحة عقلية ١٩١٦، فلجأ إلى العلاج النفسي على يد برنهارد لانج J.B. Lang تلميذ عالم النفس يونج Jung. وقد أفاده العلاج كثيراً، وفتح السبيل أمامه للتعرف على مدارس التحليل النفسي.

◆ ١٩١٩ عاش وحيداً في منفاه الاختياري في مونتانولاMontagnola بجنوب سويسرا. ونشر روايته الشهيرة «دميان Demian » ويظهر فيها تأثير التحليل النفسي عليه، ويدأ يهتم بالرسم.

◆ ١٩٢٠ نشر رواية «صيف كلنجور الأخير-Klingsors letzter Sommer كما نشر كتاب «تجوال».

◆ ١٩٢٢ نشر روايته سد هارتا Siddhartha.

◆ ١٩٢٣ حصل على الجنسية السويسرية ونشر «مذكرات اميل سنكلير Die Geschicte von Emil Sinclairs.

◆ ١٩٢٤ نشر مجموعة أعمال مختارة، وضيف في سبا A guest at the Sba.

◆ ١٩٢٦ أصبح عضواً في أكاديمية الكتاب البروسيين.

◆ ١٩٢٧ نشر ذئب البوادى Der Steppenwolf كما نُشر كتاب «هوجو بول» عن سيرة حياة هسّه بمناسبة بلوغه سن الخمسين.

◆ ١٩٢٨ نشر كتاب انعكاسات Reflections أو تأملات.

◆ ١٩٢٩ أصدر كتاب «مكتبة الأدب العالمي يتحدث فيه عن مكتبته، كما أصدر ديوان شعر جديد بعنوان «تعازي الليل».

◆ ١٩٣٠ نشر نارسيس وجولدموند Narziss und Goldmund

◆ ١٩٣١ تزوج من نينون دولبين Ninon Dolbin وهي نمساوية متخصصة في تاريخ الفنون، وانتقل هو وزوجته إلى بيت كبير بناه له صديقه د.بودمر، وتركه لهما هبة مدى الحياة، وقد استمر يعيش في هذا البيت مع زوجته حتى وفاته.

◆ ١٩٣٢ نشر «الرحلة إلى الشرق» وتعتبر تمهيداً لروايته الضخمة

«لعبة الكريات الزجاجية».

◆ ١٩٣٣ نشر مجموعة قصص بعنوان «عالم صغير».

◆ ١٩٣٤ نشر مجموعة قصائد بعنوان «من شجرة الحياة».

◆ ١٩٣٥ جُمعت قصصه القصيرة في مجلد واحد بعنوان «كتاب القصص».

◆ ١٩٣٦ نشر «أوقات في الحديقة».

◆ ١٩٣٧ نشر «من الذاكرة» وقصائد جديدة والصبي الأعرج.

◆ ١٩٣٩ - ١٩٤٥ أعيدت طباعة أكثر من عشرين من كتبه في المانيا كما نشرت أعماله الشعرية الكاملة تحت عنوان قصائد.

◆ ١٩٤٣ أصدر روايته الضخمة «لعبة الكريات الزجاجية » Das Glasperlenspiel وفيها خلاصة تجاريه وفلسفته.

◆ ١٩٤٦ حصل على جائزة نوبل في الأدب. كما حصل على جائزة جوته.

◆ ١٩٤٧ الدكتوراة الفخرية من جامعة برن Berne.

◆ ١٩٥٠ جائزة فلهلم رابه الألمانية Wilhelm Raabe- Preis.

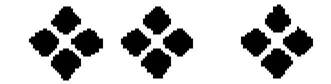
◆ ١٩٥٢ نشرت أعماله الروائية في ستة مجلدات.

◆ ١٩٥٥ حصل على جائزة السلام الالمانية، وجائزة الاستحقاق الفرنسية.

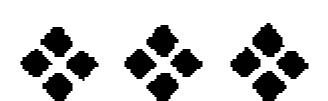
◆ ١٩٥٦ أعلن عن تأسيس جائزة «هيرمن هسه» الأدبية.

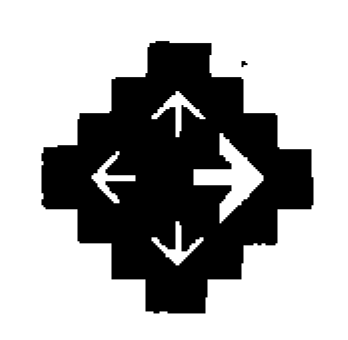
◆ ١٩٥٧ ظهرت طبعه ثانيّة من أعماله القصصية في سبعة مجلدات.

◆ ١٩٦٢ مات بنزيف في المخ في التاسع من أغسطس عن ٨٥ عاما.



المحتويات



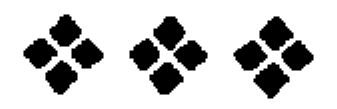


إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

روايات

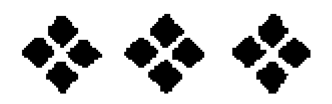
اللجنة/ صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل (الكتاب الأول)/ إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو/ إدوار الخراط
زمردة ايوب/ بدر الديب
صخب البحيرة/ محمد البساطي
متون الأهرام/ جمال الغيطاني ★
العاشق والمعشوق/ خيري عبد الجواد ★
وردية ليل (الكتاب الثاني)/ إبراهيم أصلان ★



★ قيد النشر

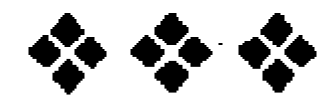
قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير/ عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي/ إدوار الخراط
القمر في اكتمال/ نبيل نعوم
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا/ محمد البساطي
رجفة أثوابهم البيض/ يوسف المحيميد
شرفات قريبة/ هناء عطية
صياد في خُص/ عبد الحكيم حيدر
عرائس من ورق/ أحمد زغلول الشيطي
الرجل الذي عرف تهمته/ لطيفة الزيات*



شعر

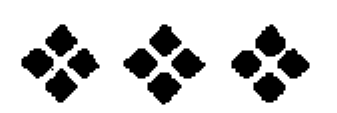
فاصلة إيقاعات النمل/ محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج/ إبراهيم داوود
فقه اللذة/ حلمي سالم
لا نيل إلا النيل/ حسن طلب



عيون الأدب الأجنبي

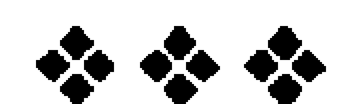
عبدة الصفر/ ألان نادو

مدام بوفاري/ جوستاف فلوبير
المكان/ أني إرنو
الكلمات/ چان پول سارتر
الأحمر والأسود/ ستندال
الآثار الشعرية الكاملة/ إديث سودرجران
ديرپارم/ ستندال★
چاز/ توني موريسون★
الأسير العاشق/ چان چينيه★
قتل للذكرى/ ديديه ديننكس★
الضفة الأخرى/ چوليان جراك★
أعمال رامبو الكاملة/ أرتور رامبو★
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الأول/ مارسيل بروست★



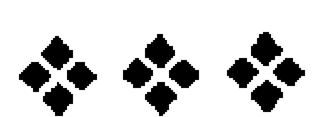
دراسات

مسرح الشعب/ د. علي الراعي
من أوراق الرفض والقبول/ فاروق عبد القادر
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث/ د. سيد البحراوي
الكتابة عبر النوعية/ إدوار الخراط
يوميات الحب والغضب/ فريدة النقاش
تاريخ القرصنة البحرية/ ياتسيك ماخوفسكي★



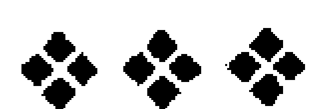
دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب العجائبي/ تزفيتن تودوروف
الوضع ما بعد الحداثي/ جان - فرانسوا ليوتار
مجتمع الفرجة/ جي ديبور
كبش الفداء/ رينيه جيرار*
مدخل إلى الشعر الشفاهي/ پول زمتور*



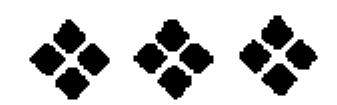
كتاب شرقيات للجميع

قصص التحول في الأدب العالمي الحديث:
الأنف/جوجول ◆ المسخ/كافكا ◆ الثدي/روث
أيام من حياتي/ هرمان هسه
من مجمرة البدايات/ محمد عفيفي مطر
اثر العابر/ أمجد ناصر
الدليل اللغوي العام/ سليمان فياض*



فنون

ناجي العلي في القاهرة/ ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)
لغة السينما / علي ابو شادي *





يصدر في هذه السلسلة :

- **أيام من حياتي**/ هرمان هسه
- **قصص التحول في الأدب العالمي الحديث**
  جوجول، كافكا، روث
- **من مجمرة البدايات** / محمد عفيفي مطر
- **أثر العابر** / أمجد ناصر
- **الدليل اللغوي العام** / سليمان فياض

